AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00972 3002

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

Morel

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

---

04-B4720

# ابن خلدون

## حياته وتراثه الفكرى

D
116.7
I 3
J 45
1933

تأليف

محمد عبد الله عنان
المحامى

[ الطبعة الأولى ]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

OCLC
219657843
928.7
Ib5a
B13178969
15008654
٩٢٠
أ خ ع

الحقوق كلها محفوظة
وممنوع أي نقل أو ترجمة أو اقتباس إلا بإذن خاص

16212

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

ما زال تراث ابن خلدون فريدا بين آثار التفكير الإسلامى ، ومازال يحتفظ رغم كر العصور بكل قيمته وروعته وجدته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمى . ولكن ابن خلدون الذى اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يُغمط فى الشرق حقه ، ويغمر ذكره ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت فى الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، اذا به لا يكاد يظفر بشىء من ذلك فى الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن ذُكر ابن خلدون أخيرا ، وترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ، فاستجابت دوائر التفكير والأدب فى جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما فى تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفى مصر مقام

شيخوخته ومثوى رفاته ، وحفلت المجلات والصحف العربية حينا بمختلف البحوث عنه ، وبذلك مثلت ذكراه قوية بيننا مدى حين ، والتفتت الأنظار نوعا الى قراءته ودرسه .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأتهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ، وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ، فإن هذه الدراسة التى أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ، إنما هى وفاء التلميذ لأستاذه ، التمست لكتابتها هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم ، وكنت أعتزم أولا أن أقدمها باسم "ذكرى ابن خلدون" ولكنى خشيت ألا يدل اسم الكتاب على حقيقة محتوياته فآثرت أن أقدمه باسمه الحالى .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ففصلتها تفصيلا وافيا ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجدل ، شرحا ضافيا .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن اجتنب الجدل والمقارنات المعقدة، مع حرصي في الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد ، وقصدي مما كتبت في ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى اذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرؤه ويدرسه بمعان واضحة . أما دراسة البحث العربي لابن خلدون ، وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد افردت له فصلا خاصا يضم خلاصة وافية لكل ما كتب في ذلك الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بيانا فهرسيا عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التي مر بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التي رجع اليها في نشره ، وما ترجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته في مختلف المكاتب . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التي رجعت اليها ، والتي يدرس فيها ابن خلدون وآثاره ، لكي يرجع اليها من شاء التوسع والمزيد .

ان ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذا لجميع الشباب الذي ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ

الشباب مقدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ، لا ليعجب فقط بما حوت من روائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا ليستقي منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الاجتماعية التي تجول بنفسه وكثيرا ما يتعثر في التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون إذا كانت ثروة لا تقدر في تراث التفكير العربي ، فهي أيضا ثروة لا تقدر في تراث الأدب العربي .

وإلى الشباب المثقف في مصر ، وفي جميع البلاد العربية ، أقدم هذه الدراسة لشخصية ممتازة في التفكير الإسلامي ، وذهن عظيم منكب ، سبق الغرب كله إلى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع عجب التفكير الغربي وتقديره ، راجيا أن يجد الشباب في هذه الدراسة ما يحفزه إلى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه ما

القاهرة في يوم أكتوبر سنة ١٩٣٣

محمد عبد الله عنان

المحامي

# الكتاب الاول

## حيـاة ابن خلدون

١

### فى المغرب والأندلس

٧٣٢ — ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ — ١٣٨٢ م

# الفصل الاول

## نشأة ابن خلدون

بنو خلدون · نشأتهم بالأندلس وظهورهم في تونس · رحلتهم · ابن خلدون · محمد بن خلدون والد المؤرخ · نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى · فقده أبويه ومحنة الطاعون الكبير · دعوته للوظيفة وتوليه العلامة في بلاط تونس ·

كان العام الماضي مبعث ذكرى خالدة في التفكير الإسلامي · تلك هي انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسي والفيلسوف الاجتماعي · ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فجدير أن تكون هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ، فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها ، من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع ·

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه(1) ، ودوّن لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيرا من خلاله وخواصه ونواحي نفسه ، وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التي تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، أنه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ، وفي هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو أخصب

(1) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون ·

مصادرنا وأهمها في كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المؤرخ الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية، فقد غدت ثمة حاجة إلى تحقيق الوقائع والحوادث، فهنالك دائماً وجهة التفسير واستخلاص البواعث المعنوية، وهنالك اختلاف الفهم والعرض. وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التي تخللت هذه السيرة، فإنه يعرضها طبق فهمه ووجهة نظره، وقد يتأثر عرضه في كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى. وتحري الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة. وإذا كنا نعتمد هذا التراث الذي تركه لنا المؤرخ عن نفسه، ونجد فيه أنفس مصادر ترجمته، فإنا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج في كثير من المواضع التي تمتزج فيها آثار العاطفة والهوى.

وإذن فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الأولى في ترجمته، ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد. فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة، ولا سيما عن حياته في مصر. وسوف نستشهد بها جميعاً. وسنتتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله، ولكنا سنحاول أن نفهمها في ضوء حقيقة مجردة، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء.

١

ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري. وهو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن

ابن خلدون. ويرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية في حضرموت، ونسبه الى وائل بن حجر، ويعتمد في ذلك على رواية النسابة الأندلسي ابن حزم (١). غير أنه يشك في صحة هذه السلسلة، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت، لأنه اذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عند الفتح، فان عشرة أجداد لا تكفي لقطع ستة قرون ونصف، انقضت منذ الفتح حتى مولده، وفي رأيه أنه يجب أن يكونوا عشرين بمعدل ثلاثة أجداد لكل قرن. وأما نسب جده خلدون الداخل الى الأندلس، فهو كما روى ابن حزم أيضاً، جده المعروف خلدون بن عثمان بن هانىء بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر. فابن خلدون يلحق بجده نسبه سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمنية؛ ولكن هناك ما يحمل على الشك في صحة هذا النسب البعيد الذي يدونه ابن حزم لأول مرة في أوائل القرن الخامس الهجري، ونعزو هذا الشك الى ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر في الأندلس، فقد اشترك البربر في فتح الأندلس، وقاموا بمعظم أعبائه، ولكن العرب استأثروا دونهم بالرياسة والحكم، واستمرت الخصومة بينهم أحقاباً طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية، وسادت عليها البربر منذ أوائل القرن الخامس. وكانت العروبة في الأندلس شرفاً يرغب في الانتساب إليه، لما كان لها من السيادة والنفوذ، ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة، بل لقد تطرق هذا الشك الى أنساب زعماء

(١) ... جمهرة [illegible]

الفاتحين أنفسهم. فقيل عن طارق بن زياد إنه من البربر وقيل إنه عربي من موالي العرب. وهذا أيضاً ما يحث على التأمل في تعلق ابن خلدون بهذه الأنساب العربية، وهو أنه في مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل، بيد أنا نراه في مكان آخر من تاريخه يمتدح العرب ويشيد بخلالهم وصفاتهم.

وعلى أي حال فإن ابن خلدون ينتمي إلى بيت من بيوت الرياسة في الأندلس يرجع إلى عصر الفتح ذاته. فقدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون إلى الأندلس في جند اليمنية ونزل أولا في مدينة قرمونة، ونشأ بها بنوه. ثم انتقل بنوه إلى إشبيلية. ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا في أواخر القرن الثالث في عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ)، ففي عهده اضطرمت الأندلس بالفتن، وامتدت الثورة إلى معظم النواحي. وكانت إشبيلية في مقدمة المدن الثائرة، ثار بها أمية بن عبد الغافر، وعبد الله بن حجاج، وكريب[2] وخالد ابنا خلدون، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة. وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد، فخلع الطاعة واستبد بها، وقتل ابن الحجاج. فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج، واشتدوا في مقاومته، وقاتلوه حتى قتل، واستبد كريب بن خلدون بالأمر، واستقل بإمارة إشبيلية. ولكن ثار عليه بنو الحجاج، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع ابن حفصون

(١) سنعرض إلى ذلك في فصل قادم.

(٢) وردت في التعريف (كريت) ... كتاب العبر ج ١ ص ٢٨٠، ولكن الأرجح أنه كريب.

أعظم ثوار الأندلس يومئذ وتغلب على حصونهم من بين مالقة ورندة ، فخشى كريب أمره وشركه معه فى حكم إشبيلية . وكان كريب صارما شديد الوطأة فنفر عنه أهل إشبيلية ومالوا الى ابراهيم لما رأوه من رفقه ولينه . واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سرا على عهد بولاية إشبيلية ، ثم ثار فى أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو حجاج بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء ابن عباد على إشبيلية ، فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، وارتقت الى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد ، وشهد زعماؤها موقعة الزلاقة الشهيرة التى انتصر فيها ابن عباد وحليفه يوسف بن تاشفين المرابطى على ألفونسو السادس ملك قشتالة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم فى الموقعة . ثم ذهبت دول الطوائف سريعا ، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ، ثم قام الموحدون بالمغرب وانتزعوا الأندلس من المرابطين ، وقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، وولى على إشبيلية وغرب الأندلس أبو حفص زعيم هنتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو حجاج بولاة الموحدين واستعادوا قسطا من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وتصدعت قواعدها وثغورها وأخذت تسقط تباعا فى يد ملك قشتالة ، نزح الأمير أبو زكريا الحفصى حفيد أبى حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى

عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشي بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع في يد النصارى ، ونزلوا حينا بسبتة ، فأكرمهم حاكمها الحفصي . ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ ، بالأمير أبي زكريا في مدينة بونة ، فأغدق عليه عطفه ونعمه ، ثم توفي الأمير زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحق . وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والسعة . وفي عهد أبي إسحق ، ولي أبو بكر محمد ابن خلدون جد المؤرخ الثاني شئون الدولة ، وولي ولده محمد جد المؤرخ شئون الحجابة حينا لأبي فارس ولد أبي إسحق وولي عهده ، وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب ملك بني حفص ، وثار بهم زعيم يدعى ابن أبي عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر ابن خلدون وقتله وصادر أمواله ، وبقي ولده محمد في بلاط بجاية ، وخاض غمار المعارك التي نشبت يومئذ بين بني حفص والخوارج عليهم ، ولبث يتقلب في ظل بني حفص في مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللحياني سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حينا ، ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقي مع ذلك على مكانته ونفوذه في الدولة حتى توفي سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) .

أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد في الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز في الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر ، وتوفي بداء الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدة : أبو زيد ولي الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فتى يافعا في الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم .

ولم يظهر منهم في نسب المؤرخ سوى يحيى الذي تولى الوزارة في عهد .

— ٢ —

كان ابن خلدون سليل أسرة عريقة نابهة ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ في مهد هذا التراث الذي تلقاه عن أسرته ، تهذبه حدوده وتقاليده . ودرج في حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ، وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه في القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه . ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب في بلاد المغرب . وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتتهم الحوادث أو صروف الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته في كل علم وفن ، ويعنى بتقديم خلاصة ترجمتهم ووصف مصنفاتهم ، ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التي درس فيها . ويبدو مما كتبه في ذلك أنه تخصص بنوع في درس الحديث والفقه المالكي ، وعلوم اللغة والشعر[2] . ثم درس المنطق والفلسفة في مبدأ نشأته حين به العقلية ، ويبدو ابن خلدون متفوقاً في درسهما[3] ، وقد شهد له جميع أساتذته ومعاصروه[4] .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا ضربت المغرب تلك الكارثة العظمى التي نكبت

(١) ذكر ابن خلدون حياته في مواضع متفرقة من التعريف .

(٢) راجع التعريف — كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥

(٣) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١

(٤) من إجازة وهي شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه تم درسه عليه .

العالم الإسلامي كله من سمرقند إلى المغرب ، وعني بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ، وهو نفس الوباء الذي عصف يومئذ بأوربا ومعظم الأمم الأوربية ، والذي ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور [١] . وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معاً سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) . وهلك فيها والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في لهجة مؤثرة فيقول إنها « طوت البساط بما فيه » ، وفيها : « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك الأبوان رحمهما الله » . ثم شعر بأنه يستوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار في التدريس ، فعول على الرحلة إلى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وصحبه . ومنعه من ذلك أخوه الأكبر محمد . ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت له فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ لكتابة العلامة عن محجوره وأميره السلطان الفتى أبي إسحاق . وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية . وكان المؤرخ يومئذ حدثاً في دون العشرين .

(١) راجع في وباء الطاعون ووصف بوكاشيو له كتابنا « الشرق والغرب » وفصل خاص في كتاب مصر الإسلامية (ص ٨٨ – ٩٥) .

# الفصل الثانى

## ابن خلدون فى بلاط فس

أوضاع [illegible] فى [illegible] إلى شمال [illegible] الأقصى [illegible] جلوس أبى سالم [illegible] لابن خلدون [illegible] فى هذا العهد . ولاية [illegible] عبد الله على [illegible] فى الأندلس

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصورها ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العميقة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . وقامت فى تونس

إفريقية) دولة بني حفص، وقامت دولة بني عبد الواد في تلمسان والمغرب الأوسط، وقامت دولة بني مرين في فاس والمغرب الأقصى. وقامت في ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة في بعض الثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء. وكان أكبر عامل في تراث الموحدين بني مرين، وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها، تشمل المغرب الأقصى وسبتة وجزءا من المغرب الأوسط وأحيانا جبل طارق. وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي غزا أندلس أكثر من مرة، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م)، وتعاقب من بعده على العرش طائفة من الملوك الأقوياء، وكان على عرش فاس في العصر الذي نتحدث عنه السلطان أبو الحسن، تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبي سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م). وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة، ففي سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى، ثم زحف على المغرب الأوسط، وما زال يفتتح ثغوره تباعا من يد بني عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ. وبذا امتدت دولة بني مرين شرقا حتى حدود إفريقية (تونس). وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلع إلى فتح إفريقية من يد بني حفص أصهاره وأصدقائه، فسار إليها في أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه السلطان أبي عنان على المغرب الأوسط، واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبي يحيى، ولبث حولا كاملا في تونس يوطد شئونها، ولكن الثورة سرت أثناء غيبته في المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته. وبلغه تحفز ولده السلطان أبي عنان لانتزاع العرش، فاختار ولده الفضل لولاية تونس، وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى. وفي ذلك الحين كان بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم، وظاهرتهم الثغور وبايعتهم، فلما غادر أبو الحسن تونس، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبي يحيى، واستولى عليها، واستعاد ملك أسرته. ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين، وانتزع منه العرش وأقام فيه أخاه الطفل أبا إسحاق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده، وذلك في أوائل سنة ٧٥١ هـ.

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن الهجري. كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع؛ والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر. وكانت تقوم إمارات صغيرة متفرقة، في القواعد والثغور، وسطى مثل بجاية وقسنطينة، وتونس، وتلمسان، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها. وكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر، وكانت قصورها مهبط المطامع والمنافسات، ومكمن الدسائس والمكائد، ومصرع أكابر المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة والملك. وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول، والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع الأسرة الواحدة. ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع في فترات السلم القصيرة، وتتنافس في البهاء والبذخ، وتجتذب

اليه رجال التفكير والأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقلبون في نعمهم ، ويتبوأون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ في تاريخ المغرب في هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتنتقل طبقا لأحوال الدول وتقلباتها ، وإنها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وإنها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع الى غيره كلما شابه الوهن والانحلال . وكأن الحركة الفكرية كانت يومئذ في المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، وكذا كانت دائمة التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصا بعد أن قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على معظم ثغورها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيرا من علماء الأندلس وأدبائها يرحلون الى المغرب باعتباره أوسع أفقا وأوفى طمأنينة وأيسر رزقا

في معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون قد رحلوا الى افريقية في أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بني حفص وينعمون في ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ في دور انحلالها ، وفقدت أسرة المؤرخ كثيرا مما كانت تتمتع به من جاه والرزق ، وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب الى احياء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب . وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة بنزول

إلى ميدان الحياة العامة ، حين استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبي إسحق . وذلك في أواخر سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م). ولكن ابن خلدون كان ينظر إلى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع . وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا . وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم . ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها في ركبه معظم العسكريين والأدباء من شيوخ ابن خلدون وأقرانه . فيتشوق للعيش في ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحاً إلى حشد الجاه والرزق بعد أن كسدت سوقهما في تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ . ولكن أحداً لم يكن يصده حينئذ عن تحقيقها . فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للخروج إلى المغرب الأقصى ليبحث وراء طالعه ويعالج تحقيق أمنيته حيث يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

— ٢ —

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة . ففي أوائل سنة ٧٥٣ هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى في قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المتغلب ابن تافراكين . فسار ابن تافراكين في جنده إلى لقائه وصحبه ابن خلدون في ركبه . ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس . وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، وأقام

حيناً فى أبّة عند بعض شيوخ المرابطين . ثم قصد بسكرة ، ثم ارتد إلى قفصة حيث والاه بعض فقهاء تونس . وكان يحضر يومئذ عند أمير قسنطينة ، ومن هنالك سار معهم إلى بسكرة وقضى بها الشتاء .

وفى ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفى (فى ربيع الثانى سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبو عنان أميراً وافر الذكاء والعزم . فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يتأهب للعودة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التى افتتحها أبوه من بنى عبد الواد ثم استردوها لأعوام قلائل . وزحف عليهم فى أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد . ثم استولى على بجاية بدخول صاحبها فى طاعته . وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا . فسعى إلى لقاء السلطان أبى عنان أثناء مقدمه بتلمسان . ويقول لنا ابن خلدون إن السلطان أكرمه ، ولم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو إلى بجاية حيث شهد مراسيم البيعة والتسليم . وانتدب للاحتفاء بالسلطان ، وخرجت معه الوفود فى ركابه ، وسار ابن خلدون معهم وحظى بلقاء السلطان بكرة وودنه مرة أخرى . ثم رد السلطان إلى فاس عاصمة ملكه ، وارتد ابن خلدون مع ابن أبى عمرو إلى بجاية ، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبث ابن خلدون يسعى فى الالتحاق بخدمة السلطان أبى عنان حتى ظفر بغيته . ويقول لنا ابن خلدون إن السلطان هو الذى استدعاه بعد أن جرى ذكره لديه فى مجلس عقد لاختيار

ضمة علم . فقدم إلى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضواً فى مجلسه العلمى وكلفه شهود الصلوات معه ، ومازال يدنيه ويقربه حتى عينه فى العام التالى صاحب كتابته وتوقيعه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دون مقامه وخطورته . وفى ذلك ما يدل على الطموح الذى كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الآمال الكبيرة . بيد أنه استطاع أثناء مقامه بفاس أن يستأنف الدرس والدراسة على جماعة من أكابر علماء الوافدين من الأندلس ومن أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيرا فى تلك الحقبة ، ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ، تأخذ بقسط بارز فى تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحيانا فى تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحيانا تشترك معها صرعى الكيد والسجن والقتل . وكان ابن خلدون لا يزال فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، ولكن ذكاءه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرفعة . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية فى ذلك العصر كما بينا ، تفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبى عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وتقدمه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، تفتح أفقه ، وتذكى ذلك النشاط السياسى الزاخر

لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة، وبين قصر وقصر، وبين الرفعة والسقوط، والنعم والمحن، مرارا.

ثم لم يمض على مقام ابن خلدون في بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غمار الدسائس السياسية. ومع أن سيده وحاميه السلطان أبي عنان لم يدخر وسعا في إكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثته منصب الكتابة واختصه بحضوره والتوقيع عنه، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع، وكان يومئذ أسيرا في فاس. ويروي لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة في عبارة غامضة (١) فيعترف بتفاهم بينه وبين أمير بجاية الأسير من لدنهم، وأنه خرج في ذلك التفاهم عن حدود التحفظ. ولكنه يعتذر بأنه حمل على ذلك بما كان بين أسرته وبني حفص الذين ينتمي إليهم الأمير المخلوع من ولاء قديم. وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضا، فنمى إليه خبر المؤامرة، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر (٢). فأمر بالقبض عليه وألقى في غيابة السجن. ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد، فإنه أبقى المؤرخ يرسف في أغلاله. وراح ابن خلدون يبث محنته إلى السلطان بقصيدة مطولة في أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م).

وقضى ابن خلدون في ظلام السجن زهاء عامين طويلين،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠١

وتضرع الى السلطان أبى عنان مرارا أن يطلقه، ولكن السلطان أعرض عن كل تضرع وشفاعة، وأخيرا رفع اليه قصيدة طويلة فى نحو مائتى بيت يلتمس عطفه وصفحه. وقد ذكر لنا منها الأبيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب ... وأى صروف للزمان أغالب
كفى حزنا أنى على القرب نازح ... وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل ... تسالمنى طورا وطورا تحارب

* * *

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها فى الليالى الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يشوقنى ... اليهم وتصبينى البروق اللواعب

ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن موقع، وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه. ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق الوعد فى ذى الحجة سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م). فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة بإطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين، ورده الى سابق وظائفه، وأغدق عليه عطفه، وأحسن رعايته ومثواه.

٣

ولما توفى السلطان أبو عنان، أقصى الوزير الحسن بن عمر ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك، وأقام ولده الطفل السعيد على العرش، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين. وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه المولى أبى سالم وبعث به الى الأندلس مع باقى اخوته. فلما توفى أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعي إلى استرداد العرش وعبر إلى المغرب بعد
صدور حكمه، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه. فاجتمعت
به قبائل غمارة وظاهرته على أمره. وحدث في الوقت نفسه
انقلاب جديد بفاس. ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب
يعقوب بن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده،
وتولى الوزير وسلطانه السعيد، فحاصرهما المنصور. ورأى ابن
خلدون في تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور، وقام خلالها بدور
لا يحمد. وقد كان تصرفه في حق السلطان أبي عنان بادرة سيئة
تنم عن عواطف وأهواء دفينة، ولكنه لم يكن وليد خطة مؤقتة،
بل كان انعكاس عوامل نزعة متأصلة في النفس. وثمة مبدأ راسخ
كان ابن خلدون رجل الفرص، يتجرد إزاء الوسائل والصور،
وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة، ولا يضيره في ذلك أن يجزي
الخير بالشر والإحسان بالإساءة، وهو صريح في تصوير هذه النزعة
لا يحاول جحودها. فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر وأحسن
إليه وآثره، ولكنه ما كاد يرى وثوب منصور بن سليمان
حتى ترك جانب الوزير إلى جانب خصمه. وولي الكتابة بعض
حينه [illegible] في غماره
وأخذ يدعو لنفسه. واتصل بمبعوثه الخطيب ابن مرزوق بين جنوده
سراً، وسلمه من أبي سالم كتاباً يحضه فيه على دعوته وتمهيد عودته
ويعده بالجميل والخير وحظوه. فقام ابن خلدون بالمهمة، ومضى
في تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا للدعوة إلى سالم، وأجمعوا
أمرهم على تأييده. وكذا وافق الوزير ابن عمر على خلعته بعد أن

أجهده الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده خفية مع نفر من زعماء الى معسكر السلطان أبي سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور "لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر الى السلطان" (١) . وسار أبو سالم في جموعه ، وابن خلدون في ركابه ، الى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ، وجلس أبو سالم على عرش أبيه (في شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . ويقول ابن خلدون إنه نهج يومئذ في كتابة الرسائل نهجا جديدا ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ، ويقول لنا أيضا إن شاعريته تفتحت في هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر لدى "يتوسط بين الإجادة والقصور" وأنشد السلطان كثيرا من القصائد في مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه في ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوي (سنة ثلاث وستين) يعدد فيها مناقب النبي الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي

ومنها .

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٥

سأل به طامي العباب وقد سرى ... تُزجى بريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم ... يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلى ظلم الضلال بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب

ورفع إلى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان (سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره، ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائج البرد
وحشية الأنساب ما أنست ... فى موحش البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعدا ... شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رءوس الشامخات به ... وربما قصرت عن الوهد

وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون، فى الظهور، عهد النثر والشاعرية، فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دوائر الأدب والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ. ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله السلطانية بأنها "حبر بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ عنه يراعه جرى، شبيهة البداءات بالخواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع" ويقول عن نظمه إنه "نهض هذا العهد قدما فى ميدان الشعر ونقد باعتبار أساليبه، فذلل عليه حوكه، وهان عليه صعبه، فأتى منه بكل غريبة"(١) .

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

---

(١) ابن الخطيب، فى ترجمته لابن خلدون فى "الإحاطة فى أخبار غرناطة" ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

وأنه ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مما كتبه في المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو إلى الملكوت الأعلى (١) أنه قد درس التصوف وخواصه دراسة لا بأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه في "التعريف" أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئاً منها ؛ غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التي تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته في صناعة النثر المرسل (٢) . على أنه يبدي مثل هذه المقدرة في البيان والتعبير بالأخص في مقدمته وجميع تاريخه حسبما نبين بعد .

ولبث ابن خلدون في كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبي سالم زهاء عامين ، ثم ولاه "خطة المظالم" (القضاء) ، فأداها بقوة وكفاية . بيد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفوذه ، وكانت الدسائس دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان ونديمه في المنفى متمكنا من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأي ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقابض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنهي طبق هواه . وكان هذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولي الرأي ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) راجع هذه الرسائل في كتاب نفح الطيب ج ٤ ص ٤٢٧ و ٤٣٤

ابن خلدون ثم عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم، وكثرت منه الوقيعة والسعاية في حقه غيرة منه، وخشية من نفوذه. وتمادى ابن مرزوق في طغيانه حتى تفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية، وأجمع زعماء وكبراء رأيهم على الخروج والثورة. وكان زعيمهم في ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان. وكان أبوه الوزير عبد الله بن علي من قبله متمكناً في دولة بني مرين نجاهه ووسع ثروته. فلما توفي سنة ستين عقد ولاية السلطان أبي سالم بطمع الولد إلى تراث أبيه، وسعى لدى ابن مرزوق في تحقيق بغيته، وزوجه السلطان بأخته، وعينه كبير أمنائه وجعله موضع ثقته حيناً. ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان يحفظه ويذكي سخطه، وكان السلطان من جهة أخرى يشتغل في حبسه بأمير تلمسان وأنه يأمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة. فلما تجاوز ابن مرزوق في طغيانه كل حد، وتخمرت فكرة الثورة، نهض عمر بن عبد الله مع قائد الجند، ووثب بالقصر الملكي في غيبة السلطان وسيطر على البلد الجديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع أبي سالم وتولية أخيه تاشفين مكانه. واضطرمت عندئذ نار الثورة في كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية؛ وحاول أبو سالم أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله إلى الثوار، فر في جماعة من صحبه، فطارده الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة. وكان ذلك الانقلاب في أواخر سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١ م)[1].

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣١٢ — ٣١٤

فماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الانقلاب الجديد ؟

كان كما عهدناه دائماً ، يحب الظافر وينضوي تحت لوائه دون إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره في وظائفه وزاد في إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة . فقد كان على قوله يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه ، وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبي عنان صداقة قديمة ، وكان يعتمد على هذه الصداقة في التمكن لدى الوزير ويرعى له حقه عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه في الظفر بمنصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير عمر لم يحقق له أملاً في ذلك . ولعله كان يخشى بعض ما تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال من وظائفه ، واستعتبه الوزير فأعرض عنه وتنكر له ، فتوجس ابن خلدون شراً ، واستأذن في السفر إلى بلده تلمسان فمنعه الوزير من ذلك خشية أن يمر في طريقه بعدوة أبي حمو أمير تلمسان التي استرجعها بنو عبد الواد يومئذ . فاستغاث ابن خلدون بمسعود بن ماسي زميل الوزير عمر وظهيره في الدولة ولم يزل بعمر ، حتى أذن له في السفر بشرط أن يجتنب تلمسان وألا يذهب إليها بأي حال ومن أي طريق . فاختار ابن خلدون الرحلة إلى الأندلس . وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ، فيقول إنه صرفهم إلى أخوالهم في قسنطينة . وإذاً فقد كان ابن خلدون يومئذ متزوجاً وكان له أولاد . ولم ينقل لنا من قبل أنه تزوج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أنا نعتقد أن

هذا الزواج كان في سنة ٧٥٤ هـ ، أعني قبل ذلك بعشرة أعوام ،
في الوقت الذي كان يتجول فيه في المغرب الأوسط على أثر مغادرته
تونس سنة ٧٥٣ هـ ، وكان عندئذ يقيم بحاية على مقربة من قسنطينة .
وإن ما نعلمه [illegible] الأب أسرته ولد كر ،
فيشير في رحلاته معه في مختلف المواطن ، بيد أنه لا يقدم إلينا
عنهم أي بيان ، وحديثه عنهم في منتهى الحذر .

# الفصل الثالث

## رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب · نكبة ابن الأحمر ووفوده [illegible]

[illegible]

وكان ملك غرناطة أو الأندلس في ذلك الحين محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر النصري، وقد ملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أبي الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م). وكان حدثاً صغيراً، فاستبد بحجابته أبو النعيم رضوان بشئون الدولة، وكان من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ، وكان وزيراً لأبيه من قبل. وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبي سالم وبقية أخوته وبعثهم إلى الأندلس كما قدمنا، وأكرم السلطان محمد مثواهم، وأحكمت بينه وبين السلطان أبي سالم صداقة متينة. فلما توفي السلطان أبو عنان، واسترد أبو سالم عرشه في شعبان سنة ستين، كانت الصلة بين الأميرين أوثق ما يكون. بيد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبي سالم، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد

عرشه في أواخر رمضان سنة ستين . وكان أخوه إسماعيل يؤازره جماعة من [illegible]، في مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لإسماعيل سرا ويترقب الفرص للوثوب بمحمد . فلما سنحت فرصة عينها ذات يوم من [illegible]، وثبوا بالسلطان محمد في جمع من شيعته، وقتل حاجبه رضوان . وولي إسماعيل أخيه السلطان مكانه . وفر محمد إلى وادي آش . [illegible] ووزيره ابن الخطيب [illegible] وعلم [illegible] محنة صديقه، ورعى له عهد الصداقة والوفاء، فأرسل إلى الأندلس سفيرا يسعى لدى حكومة غرناطة في إخراج السلطان المخلوع ووزيره ليعتقل إلى المغرب . فنجح السفير في مهمته، ووفد إلى المغرب صحبة السلطان محمد، ووزيره ابن الخطيب أواخر سنة

[illegible]

إحدى وستين، واستقبلهما أبو سالم في موكب حافل فخم(١)، واحتفل بقدومهما في يوم مشهود، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وعونه، هذا مطلعها:

سلا هل لديه من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمي دارا على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذي ربى جناحي وكره ... فها أنا ذا ما لي جناح ولا وكر

* * *

ومنها:

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبثا الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رابنا منها التعسف والنكر
وعدنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها:

وأنت لنا يدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيا لمرين جاءه العز والنصر
وجد بإحسان [illegible] حق شكره ... ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر(٢)

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل، ويقول لنا إن ابن

---

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث [illegible] ... ص ٨٠ وما بعدها، و[illegible] في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٢) وهذه القصيدة طويلة في نحو ثمانين بيتا وقد وردت كاملة في [illegible] [illegible].

الخطيب ذكي بسمعه تأثر وأسى . ويقول ابن الخطيب نفسه إن قومه كانوا يتخذون تأثر الأفول . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عديدة ، وقد كان كلاهما أسد عصره وفقيده في التفكير والكتابة . وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها [illegible] بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزيراً ومستشاراً ومستنداً لأمراء عصره ، [illegible] أو عليهم . وكان ابن خلدون شغوفاً في أول الأمر بنفس مركز [illegible] كان يشغله ابن الخطيب في الأندلس . وقد [illegible] في [illegible] التفكير والكتابة [illegible] كان يستأثر بها ابن الخطيب في الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والمنافسة . وكان كل منهما [illegible] صحبه و[illegible] ، [illegible] وقد [illegible] كل منهما الآخر ، وذكره بما يليق من خصائص [illegible] . ويقول ابن خلدون في ترجمته لابن الخطيب إنه [illegible] في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، [illegible] وتشرب في [illegible] ثم [illegible] بعد ذلك [illegible] وتقدمه في الإدارة والحكم (١) .

ويصف ابن الخطيب ابن خلدون في ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل [illegible] ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل

(١) [illegible]

محمد، ووفور المحاسن، وذكاء شمائله، عزوف عن الضيم، صعب
المقادة، قوي الجأش، طامح بنفسه إلى الرياسة، حسن اللحظ،
متقدم في عدة فنون لغوية وأدبية، متعدد الطرز، سديد البحث
كثير الحفظ، صحيح التصور ... (١) ويعدى كثيرا أرحامه من
تبدلا من زمانه، فبحجه مثل هذا التعبير والإحسان.

وتقدم السلطان محمد في بلاط فاس حينا ولم يلبث أبو سالم
وسعد في كرامه وتحول ابن الخطيب عن المغرب. وتبين
لنا، ووثقت بين ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال
الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصداقة. وكان يقوم
بخدمته وقضاء مطالبه. فلما سافر الأمير إلى الأندلس ليحاول
استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته، ورعاية شئونها
ومطالبها، وتوفير راحتها، وعقدت أيضا بينه وبين ابن الخطيب
أواصر صداقة ثمينة وتوثقت فيما بعد. وحاول السلطان محمد أن
يعمل لاسترداد ملكه بمعونة پيدرو القاسي (بتره أو بطره) ملك
قشتالة، فلم ينل أي عون منه. ولكن ملك قشتالة حينما
شعر بتصريح السلطان أن سلطة لديه تدور في التقييد، واستعاث
محمد بعدئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، وتوسط
لديه ابن خلدون، وكانت له يومئذ لديه حظوة، في أن يقطعه
إحدى مدن الأندلس المغربية، ليتخذها قاعدة للعمل والأهبة،
فأقطعه رندة وأعمالها. ولم يلبث أن بدأ أمره، حتى استعاد ملكه

(١) وردت هذه الترجمة في كتاب ... بترجمة في ... وعنها
المقري في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها

من أيدى خصومه ، ودخل غرناطة ظافرا فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ، واستقدم إليه أسرته من فاس واستدعى وزيره ابن الخطيب ورده إلى سابق مرتبته ونفوذه .

ثم وقع الخلاف بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، ففكر فى الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وقد كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أيد لا تنسى ، فنستطيع أن نتصور العوامل التى دعته إلى تلك الرحلة ، ولاسيما فى كنف صديقيه . فقصد إلى سبتة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم عبر منها إلى الأندلس ، وكتب إلى السلطان وإلى ابن الخطيب بمقدمه . وقد أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بقدومه . ووصل إلى غرناطة فى الثامن من ربيع الأول ، فاهتز السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه فى أهل مجلسه ، وقربه إليه ، وآثره بصحبته وسمره ، وعامله ابن الخطيب منتهى الإكرام والرعاية . وفى العام التالى ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيرا عنه إلى بيدرو (بطرس) أمير قشتالة[١] ، ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح والتفاهم على الأمور بينهما . فقصد ابن خلدون إليه فى إشبيلية حيث كان يقيم يومئذ ، وتلقاه ملك قشتالة بالترحاب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه

(١) [illegible]

على آثار أسرته بإشبيلية وقد كانت كما رأينا موطن بني خلدون وفيها سطع نجمهم حيناً. وكان ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته، وعرفه بها وبمكانته طبيب يهودي في بلاطه يدعى إبراهيم بن زرزر، وكان قد عرفه في مجلس السلطان أبي عنان من قبل حين سفارته لديه، ثم عرف بدرو ملك قشتالة، عرض عليه عندئذ أن يبقى في خدمته، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته بإشبيلية، ولكنه أبى. ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى من أن يعتمد على ملك قشتالة كل حذق في عرضه. وأدى ابن خلدون مهمته بنجاح، ووهبه ملك قشتالة بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، فأهداهما إلى السلطان، وأقطعه السلطان عند عوده قرية البيرة بمرج غرناطة، وأدر رزقه واستدعى أهله، واستأذن السلطان في استقدام أسرته من قسنطينة، فبعث السلطان في استقدامهم. وعاش مدى أشهر أخر مع أسرته في رغد وطمأنينة. ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه، وشعر بتنكر ابن الخطيب وسعايته في ذلك من نفوره وإعراضه؛ وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه. وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق لبقائه موضع، ووصلته في الوقت نفسه رسالة من صديقه الأمير أبي عبد الله محمد أمير بجاية أنه استرد ملكه، وأنه يرغب في قدومه، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ واستأذن السلطان فأذن له، وزوده بأعطيته، وشيعه معززاً مكرماً، فغادر الأندلس، وركب البحر من ألمرية إلى بجاية في منتصف سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م).

# الفصل الرابع

## ذروة العمارة

[illegible]

[illegible] وكان [illegible] الأمير [illegible] اللحياني سنة ٧١١ هـ [illegible] فتح الثغور [illegible] الأمير [illegible] حتى [illegible] سنة ٧٤٦ هـ ، [illegible] في [illegible] الأمير [illegible] السلطان [illegible] الأمير محمد [illegible] من أمراء الثغور [illegible] المغرب ، [illegible] السلطان [illegible]

[illegible]

[illegible]

ثم توفى السلطان أبو [illegible]

[illegible]

[illegible] السلطان أبي سالم ودخل في

[illegible] والأمر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ٧٦٥ ه

[illegible]

[illegible] يستدعيه ليوليه حجابته وفاء [illegible]

[illegible] الرحيل من الأندلس [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أهل [illegible]

[illegible]

[illegible]

وقد كانت بجاية يومئذ في الدول المغربية حسبما يعرفه هي:
الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه في ذلك أحد، واستبد بشئون الدولة. ومضى يدبر الأمور بعزم ورفق الفتى على عادته بحزمه وذكائه، ويجول بين القبائل الجبلية يستخلص منهم الجباية فيسير بقوة دهائه ونفوذه. ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة. وكان أبو العباس يتطلع إلى امتلاك بجاية ويشنع على أميرها غدره وصعوبة خلقه وشدته. ويقول لنا ابن خلدون أن الأمير محمدا لم يحسن سيرته في أهل بجاية بل كان يرهقهم ويشدد وطأته عليهم حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته بتحريض أبي العباس. وفي سنة سبع وستين قصد أبو العباس في قواته إلى بجاية. وقاتل الأمير محمدا بظاهرها وهزمه وقتله، ودخل بجاية ظافرا. وكان ابن خلدون أثناء ذلك يقيم بالقصر في بجاية. فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء في تولي الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان، فأبى وخرج كعادته إلى لقاء الظافر وانضوى تحت لوائه؛ وسلم ابن خلدون المدينة إلى أبي العباس. فأكرمه وأقره حينا في وظيفته؛ ولكن ابن خلدون شعر عندئذ بتغير نيته فانصرف بأهله إلى أحد الأحياء القريبة. ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه، ففر ابن خلدون إلى بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى، واعتقله ببونه، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم.

وهكذا ختمت تلك المغامرة التي كان ابن خلدون مديرها

منذ البداية ، وكانت من نفثات أصبعه ، وكانت كتاباته دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران العصبية ، ونهز الفرص سانحة مهما كان انتهازها منافيا للوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون يصدر في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية . وكانت سيرته مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافيلي في عصره ، وصوره في أميره لأمثل ، ذلك الروح الجرئ الشديد الذى يقتحم كل صعب سبيل ، ولا تبقى في عينيه المرعية أى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا في مكان آخر في حديثه عن أمير بجاية المقتول : «وقام مستدعى هذا الأمير أبو عبدالله بادرت إلى مبايعته ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»(١) . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجور في حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول إخفاء ثمار دوره فيها وشبهاته منذ بعيد ، ولا ريب أن مقتل صديقه وسيده لم يصدمه ولم يحزنه ، وقد كان معتقد آمنه أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

ويحاول ابن خلدون عندئذ أن يسكن العاصفة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمو موسى بن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول . وكان يطمح إلى فتح بجاية . فما سمع بمقتل صهره بعث قواته إلى

(١) كتاب العبر ج ٦ ص ٢١٧ .

محاربة تحول أحمد. ولكنها هزمت هزيمة شنيعة. وكتب أبو حمو على أثر ذلك إلى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه في ناحيته وبين جموعه من القبائل. وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة. وكتب إليه يرجوه في السعي لبث دعوته وحشد القبائل. فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة هذه المرة، وأرسل أخاه يحيى. وكان قد أطلق سراحه من معتقله قبل ذلك. ولكنه عمل على بث الدعوة بين القبائل وحولها من جانب أبي العباس إلى جانب خصمه أبي حمو.

ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة وشغوب الوظيفة، وزهدت في غواية الرتب، واشتاقت إلى ما شغلت عنه طويلا، فعولت على استئناف الدرس والقراءة، والإعراض عن متاعب السياسة ومهام الخدمة السلطانية. ولكن القدر شاء أن يعود إلى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السياسية مرة أخرى.

وفي ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه، ويحدثه بأخبار الأندلس، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة. ورد عليه ابن خلدون، يعرب عن مثل شوقه وحبه، ويحدثه بأخباره ومحنته في بجاية، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت إليه[1]. ويبدو في هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والإجلال.

وبث ابن خلدون في بسكرة بث الدعوة لأبي حمو ويحشد

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠.

للسائل في حسبه ، ويؤيده على أبي العباس . ويعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبي حمو وأبي إسحق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبي العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبي حمو بخروج ابن عمه أبي زيان عليه . فضاعف ابن خلدون همته في سعيه للسائل إليه . ثم خرج مع صاحب بسكرة وبني رياح ، لدى سعيهم في مؤاتيهم لنصرة أبي حمو . وكان يتهيأ لمحاربة خصومه ( سنة ٧٧١ هـ ) ولكن أبا حمو هزم أمام خصومه مرة أخرى وارتد ابن خلدون إلى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل في جانب أبي حمو ، ويحكم الصلة بينه وبين سلطان تونس .

وفي العام التالي ، سار ابن خلدون في وفد من الزعماء لزيارة أبي حمو واتفقوا معه على تدبير خطة الهزيمة . فلقيه بالجزائر ، ولقي لديه منزل حسن ، وأنشده يوم الفطر قصيدة مهنئة يقول فيها :

هذي الديار تحييهن صباحا … وقف المطي بهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها … عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا … أن لا يزلن مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحول عنه إلى عدوه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلب لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج في جيوشه يومئذ يريد غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بني عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢ هـ

كما قدمنا، وأخذ يدير العرش ملوكاً وأخذ ثمة صنائعه من بني مرين. ففي سنة ٧٦٨هـ ولي السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن، وكان أسيراً في اعتقاله، وشدد عليه الحجر والاستبداد كغيره، فأنف السلطان لذلك، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وبطش بذويه، واسترد السلطة كاملة؛ ثم خرج بجيوشه يغزو في نحو المغرب الأوسط بقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بني عبد الواد في المغرب الأوسط. وكان ابن خلدون يقيم عندئذ في ضيافة أبي حمو. فلما علم بمقدم ملك المغرب، ورأى الطريق إلى بسكرة قد سدت في وجهه، وسرت الفتنة في كل ناحية، حتى خافها على نفسه، واستأذن أبا حمو في السفر إلى الأندلس، فأذن له وبعث معه برسالة إلى ملك غرناطة، وأسرع ابن خلدون إلى مرسى هنين ليركب البحر منه، ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو إلى الصحراء ليحشد جموعه وأنصاره. ونمي إلى ملك المغرب أن ابن خلدون في هنين وأنه يحمل ودائع لأبي حمو، فأرسل في طلبه سرية من الجند، فداهمته في المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئاً، وحملته إلى السلطان في ظاهر تلمسان، فحقق في شأنه وندبه للسعي لاستمالة العرب إلى بني مرين وانضوائهم تحت لواء عرشهم. فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير عمر، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين، وذكّره بسابق خدمته في بني مرين. وعطف السلطان بعطوفته على أحد نجيه حين كاشفه وعنفه في التجهم، فرق السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من عقله، فارتد ابن خلدون إلى مكان في الصحراء يعرف برباط أبي مدين

ونزل به حينا يشتغل في عزلته بالقراءة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعد ذلك بقليل (سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد إليه أن يبث دعوته بين القبائل وأن يجمعهم على مناصرته ومقاومة عدوه أبي حمو . فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس . واشترك في بعث الحملة التي بعثها السلطان لمطاردة أبي حمو وأخذ يعمل متنقلا بين القبائل لصرف القبائل عن أبي حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ . ونشطت جنود السلطان تقتفي أثر أبي حمو حتى دفعته إلى أعماق الصحراء ، ومزقت عساكره ، وفر أبو حمو وآله تحت جنح الظلام ، وتخلف ابن خلدون بعد ذلك لدى أسرته أياما في بسكرة ، ثم قصد إلى السلطان عبد العزيز في تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه ، وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة في المغرب الأوسط وردها إلى الطاعة ، فصادف بالأمر ، ولكنه لم ينجح في مهمته في تلك المرة ، فعاد إلى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان . وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان في تلمسان ، وقد غادر الأندلس فرارا من بطش سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلائق ، فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه ورعايته . وكتب ابن الخطيب إلى صديقه في بسكرة يقص عليه خبره ، ويعتب عليه فيما كان منه في حقه حين مقدمه إلى الأندلس ، فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه ، ويدفع

عن نفسه محنة الخطوب والوقيعة وبهتة نجاته (١) .

ولبث ابن خلدون مقيما في بسكرة، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة في جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبي بكر بن غازي، عهد إلى ابن خلدون بمهمته مرة أخرى، فأدى ابن خلدون المهمة، وقصد إلى الوزير بمكانه بالصحراء في شيوخ القبائل الموالية، ووضع معه برنامج العمل، ثم عاد إلى بسكرة، ولكن مقامه بها لم يطل، لأنه آنس في نفس أميرها تغيرا وريبة في الثورة، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان في تلمسان، ولكنه ما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وولاية ابنه السعيد مكانه في كفالة الوزير ابن غازي وقفوله بالجيش كله إلى فاس (سنة ٧٧٤ هـ) . فتحول عندئذ عن طريق تلمسان واخترق الصحراء مع بعض [illegible] ، وعرضت عليه أثناء مسيره عصابة من الأشقياء [illegible] في نواحي [illegible] على أثر [illegible] ، ونهبت متاعه [illegible] . ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة . ووصل أخيرا إلى فاس في حال سيئة ، وأكرمه الوزير ابن غازي وغمره برعايته ، وأقام في فاس موقرا مبجلا .

وفي ذلك الحين ساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد فر من الأندلس إلى المغرب فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر من بلاط فاس

(١) [illegible] ٤٣٤ — ٤٣٦

AUC LIBRARY

AUC - LIBRARY

إبعاده وتشريده في أيام الوزير ابن غازي . وأطلق بعض المحابيس من أسرة بني الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس . وأطلق ابن الأحمر رئيسين من زعماء المغرب كانا بالأندلس وهما عبد الرحمن بن يفلوسن من أمراء بني مرين والوزير مسعود بن ماسي لمناوأة حكومة فاس . وبعثهم في أسطوله إلى شواطئ المغرب وحاصر جبل طارق وهي يومئذ من أملاك بني مرين . وبعث الوزير ابن غازي جيشاً لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . واستماله ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبي سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة . وزحف لقتال ابن غازي . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة قرب مكناسة ، وارتد ابن غازي إلى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابته . واستولى الأمير عبد الرحمن على شطر المغرب تنفيذاً للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيما بفاس . فلما وقع الانقلاب ، وشى بعضهم في حقه للحكومة الجديدة ، فقبض عليه حينا ثم أفرج عنه بسعي صديقه الأمير عبد الرحمن صاحب الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة إلى الأندلس عند ما أغلقت في وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون إنه أراد اللحاق بالأندلس طلبا للاستقرار والدرس . ويظهر أن فكرة الانقطاع إلى البحث والتأليف كانت قد اختمرت في ذهنه يومئذ ، وقد رأينا بوادره مرارا منذ اضطربت شئون السياسة وتجهم أفق المغرب . فجاز

البحر إلى الأندلس في ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركا أسرته بفاس . ولقى في طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبد الله بن زمرك ذاهبا إلى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقهم به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حساب الدسائس وخصومه ، ولم يدر بخاطره أنه سيغدو موضع المساومة في مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شرا من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمى إليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبد الرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى إلى فاس ليسعى في تجديد عهد شائن قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقده ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب إلى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون إلى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازي ، فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يسعى في محنته حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وذهب المفكر والكاتب والسياسي العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، إذ اتهم بالزندقة فيما ورد ببعض رسائله ، فعذب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله

فقتل خنقاً في سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ – ١٣٧٤م) [١] .
وقد نقل إلينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده ابن الخطيب في محنته يرثي به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح يوم من لا يموت

(١) [illegible] ج ٢ ص ٣٤١ – ٣٤٢

# الفصل الخامس

## عزلة وتأليف

[illegible]

وهكذا كان ابن خلدون يخرج من الدسائس لآخر مرة في ظروف شائكة، وكانت سلطته مهددة مضطربة. ولكن ابن خلدون كان يشعر حقا من صميمه بأنه اكتفى بنصيبه من خوض غمار السياسة عن أوطانه وأن يأخذ في الراحة والسكينة. فعاش في مرسى هنين حائرا حزينا لا يعلم أين يقصد. وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبي حمو أمير تلمسان. ولكن أبا حمو كان لم يزل يثق به في مهمته وحقه في خدمته مرة بعد مرة، فتركه شريدا في هنين. ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بني عريف، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه الى تلمسان، فقدمها في عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة. ولكن أبا حمو ندبه مرة أخرى ليدعو له بين القبائل، فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغما. ولكنه كان على ما يظهر

قد عاف غمار السياسة نهائياً ، وكاد يعتزم الانتقال حتى ولى شطر قبلة أخرى ، وسار إلى أحياء بنى عريف عرب تلمسان ، ولحقت به أسرته بعد حين من تلمسان ، وعندئذ أصدقاؤه لدى السلطان أن يحول وأكرم بنو عريف مثواه ، وكرموه وفود أسرته لحد قصورهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين ؛ فقضى ابن خلدون فى هذا المعتزل النائى نحو أعوام ، وتم لأول مرة الاستقرار والهدوء المستمر بعيداً عن غمار السياسة والدسائس السلطانية ، ومخاطر التجول والمغامرات الحربية ، وأتيح له لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفى هذه العزلة الهادئة بدأ ابن خلدون كتابة مؤلفه التاريخى . وكان يومئذ فى نحو الخمسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت ملكته ونظراته . وكان قد قضى نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة ، متقلباً فى خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ، ويستقصى أسرارها وأخبارها ، ويخوض حوادث [illegible] و [illegible] الصحارى المغربية متنقلاً بين قبائل العربية يدرس صفاتها وأحوالها وشئونها فى حياة العامة والخاصة . وكان ذهنه الخصب ، فضلاً عن هذه الدراسة العملية ، يستقى بثمار الإطلاع الشاسع ، لدى كل حلقة وفى خزانة كتب [illegible] فى مكاتب المغرب والأندلس . فكانت [illegible] موفقة ، وفى ذلك يقول [illegible] ، كتب ابن خلدون

(١) [illegible]

مقدمة التاريخ، وإنها لمن أنفس وأعظم الآثار الخالدة التي تبوأ مكانة رفيعة بين تراث التفكير البشري، ومن تراث العربية بلا شك لأن ابن خلدون لدى الغرب تزهو به وتفخر، وانتهى في حدود من كتابة مقدمته التاريخية لأول مرة في منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق في كتابتها خمسة أشهر فقط، ثم نقحها وهذبها بعد ذلك. وهو يقول لنا في دهشة من نفسه وإعجاب بتوفيقه: «وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها» [2]. ثم شرع بعد تقديم مقدمته في كتابة التاريخ، فكتب منه تاريخ العرب والبربر وزناتة وبعبارة أخرى كتب منه القسم الأول والأخير حسب التقسيم الذي انتهى به إليه. ومما يلاحظ في تاريخ ابن خلدون أنه كتب تاريخه في بدايته، وكان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية، وهو ما يشير إليه في المقدمة بقوله: «وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي، إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه» [3]. ولكنه عاد فعدل برنامجه،

(١) راجع مقدمة — ص ٥٣٤
(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٤٤
(٣) مقدمة — ص ٣٠

ورأى أن يكتب تاريخه عن تحقيقة . ولما كان يشعر في مقامه بالعزلة عن كثير من المراجع الضرورية ، فقد عزم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيئ له مكاتبها أطيب فرصة للمراجعة والتحقيق . وكان ذلك في أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر .

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذي عهده من قبل أمير قسنطينة ثم تزعم حربه ضد ابن عمه الأمير محمد وولي ابن خلدون له الحجابة حينا . ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة . وقبض على أخيه يحيى في بونة وصادر أمواله . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ، وحاجبها ووزيرها ابن تافراكين الذي استبد حينا بشئونها حتى جرده السلطان أبو إسحاق من سلطته ، ووجد عمال معاونة على تحقيق مشروعه . وفي سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس في قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها خالد ولد أبي إسحاق ، ثم استولى من بعد ذلك على جميع الثغور الإفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية موطدة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبي العباس وبين ابن خلدون منذ حوادث بجاية أعني منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما عزم مؤرخنا العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب إلى السلطان أبي العباس يرجو الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح ووعد بالعود لقدومه . فغادر ابن خلدون أحياء عريف في شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز

للصحراء ومر في طريقه بقسنطينة فسرح له حينا في ضيافة
لأميرها إبراهيم بن السلطان أبي العباس. ثم قصد إلى السلطان
أبي العباس. وكان يومئذ على رأس جيشه يعمل على إخماد ثورة
في بعض النواحي. فلقيه خارج سوسة، فأيده السلطان أجمل
تأييد ونوه به. أكرمه وقربه وشاوره في أموره. ثم عاد إلى تونس
وأصدر أوامره بتوفير ما يجب لراحته من مسكن ومعاش. وهو
في حاضرة تونس، وطنه ومسقط رأسه، لأول مرة منذ غادرها
حدثا دون العشرين في سنة ثلاث وخمسين. واستقدم أسرته من
حيث غربتها. وأقام في دعة وأمن وسعة، وانكب على الدرس
والبحث. حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر،
فقربه إليه واختصه بمجلسه وكلفه بوظيفة مؤقتة. وهنا شعر ابن خلدون
كأن الدسائس بدأت تعمل حوله. فلما آثره السلطان بهذه
الحظوة، وكان محور هذه الدسائس خصمه القديم ابن عرفة شيخ
الفقه. ويقول ابن خلدون في سبب هذه الخصومة، إنه كان
يتفوق على ابن عرفة في المجالس العلمية، وأن كثيرا من طلبة
ابن عرفة هرعوا إليه يتلقون عنه دروسه فحقد لذلك، ووجد سبيلا مع
رجال البطانة في حقه لدى السلطان. ولكن هذه السعاية لبثت
حينا دون أثر لتمكن مركزه ومقامه.

وهنالك توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة، فعكف
على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى تمت منه نسخة أولى رفعها إلى
مولاه السلطان أبي العباس في أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢م)
وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة

وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية مختلفة [١]. وقد انتهى ابن خلدون في كتابه عن أخبار الدول المغربية في عصره حتى استرجاع السلطان أبي العباس لتوزر في سنة ٧٨٣هـ [٢]. ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ، وأضيفت إليها أقسام كثيرة أخرى في تاريخ الدول الإسلامية في المشرق، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد.

وفي نفس الوقت الذي رفع فيه ابن خلدون نسخته الأولى من كتابه للسلطان أبي العباس، أنشده قصيدة طويلة في نحو مائة بيت، يشيد فيها بسيرته وأعماله، ويشيد بفضله وبراعته، ويسوق كتابه، وهي من أشهر قصائده، وهذا مطلعها.

هل غير بابك للغريب مؤمل — أو عن جنابك للأماني معدل

هي همة بعثت إليك على النوى — عزماً كما شحذ الحسام الصيقل

متبوأ الدنيا ومنتجع المنى — والغيث حيث العارض المتهلل

ومنها :

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب — يعطي عطاء المنعمين فيجزل

لله من خلق كريم في الندى — كالروض حياه ندى مخضوضل

هذا أمير المؤمنين إمامنا — في الدين والدنيا إليه الموئل

هذا أبو العباس خير خليفة — شهدت له الشيم التي لا تجهل

سبق الملوك إلى العلا متمهلا — لله منك السابق المتمهل

فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا — يتسابقون إلى العلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٥٠٣ و ٦٠٣.
(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٩٠.

ومنها في ذكر الكتاب .

إليك من سير الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل

صحفاً تترجم عن أحاديث الألى ... درجوا فتجمل عنهم وتفصل

تبدي التبابع والعمالق سرها ... وثمود قبلهم وعاد الأوّل

والقائمون بملة الإسلام من ... مضر وبربرهم إذا ما حصّلوا

لخصت كتب الأولين لجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا

وألنت حوشيّ الكلام كأنما ... شرد اللغات بها لنطقي ذللوا

وجعلته لسرير ملكك تحفة ... يهدي الندي به ويرضى المحفل

والله ما أسرفت فيما قلته ... شيئاً ولا الإسراف مني يجمل

على أن هذه الدعة التي نعم بها ابن خلدون طالت مدى حين ، وما لبث أن غشيها مكدر . فإن ابن عرفة وحلفاءه خصوم المؤرخ في دسهم وسعيهم . ولم تثمر هذه السعاية في حرمان المؤرخ من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت في إزعاجه من طريق آخر . ذلك أن السلطان حين تأهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه في توزر وقفصة سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ، فصدع ابن خلدون بالأمر مكرهاً . وكانت نفسه قد عافت أحداث السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما انتهت حملته أو كادت أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد الى ضيعته بحوز تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافراً ، فصحبه الى تونس . ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج في جيشه مرة أخرى . فخشي ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه في حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج، يتوسل بها عذراً إلى السلطان، فتضرع إليه أن يخلي سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة، فأذن، وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى، فكانت هجرته الأبدية، وخرج إلى مرسى السفينة، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأسى. وركب البحر إلى المشرق في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م).

* * *

وهكذا ختم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث، ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة، ولم تكن مما يرضي نفسه الكبيرة. كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسي ومفكر عرفته إفريقية[1] والأندلس في القرن الثامن، وكانت تلك الخلال والمواهب الذهبية التي حملته إلى ذروة الحوادث، وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ [illegible] بين تلك القبائل الصحراوية التي عرفت دهاءه، وقوة الشكيمة وحدة البراعة، خليقة بأن تبوئ له مكانة رفيعة وطيدة في دول العصر وقصوره، وقد أنفق ابن خلدون ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية، وتمتع مراراً بمغريات الرياسة والحكم، وذاق مراراً محن النقمة ومرارة الاعتقال والأسر وخطر الهلاك. ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ، ويصبح وإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التي تقلب

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره.

في خدمتها وأسدى لها أجل الخدمات أخيراً، ثم إذا به يجد نفسه في هذا الملاذ الأخير الذي آوى إليه واستقر في ظلاله، موضع السعاية والكيد. وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى في البحث والتأليف، وقد هذّب نفسه المضطرمة شغف النضال والمغامرة، وعاف أحداث السياسة، وأخذ يترفع بنفسه عن تلك المهام السلطانية التي كان يجد في خوضها وسيلة للنفوذ والرياسة. وكان ينشد الاستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوي مرحلة حياته في وطنه، ويثوي بين أهله الثواء الأخير إلى جانب آبائه وأجداده. ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة، وأزعجه كيد خصومه في مقامه الجديد، وخشي أخيراً عاقبة الكيد والسعاية. ولم يجد في تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة، فاضطر أن يلتمس الحج عذراً للرحيل والسفر، وأن يودع الأهل والولد، وأن يغادر الوطن وحيداً فريداً إلى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار.

# ٢

# ابن خلدون في مصر

٧٨٤ – ٨٠٨ هـ : ١٣٨٢ – ١٤٠٦ م

# الفصل السادس

## ولاية التدريس والقضاء

*[illegible] ... الدول المصرية ، انقطاعه للدرس [illegible] ... الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .*

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) كما قدمنا ، ووصل إلى ثغر الإسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم إلى مصر ينتظر مهبه في ركب الحج ، وإنه لبث بالإسكندرية شهراً حتى أعده لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية ، فقصد إلى القاهرة (١) . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجة لهجرته في مغادرة تونس . وكان مقدمه إلى مصر ، كما رأينا ، نوعاً من الفرار ، وحيلة للتخلص والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣

يقضى أيامه بمصر فى هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة. وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره، ولكنه كان وافر النشاط والقوة، يتطلع دائما الى مراتب النفوذ والشهرة، وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب، وملاذ شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب. فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية. ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ (نوفمبر سنة ١٣٨٢)، فبهرته فخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن(١)، وكما بهرت فى كل العصور كل من زارها من علماء المشرق والمغرب. ولا يعرف المؤرخ المغربى سوى تلك المدن الصحراوية المتواضعة، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها. وهو يصف القاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وتقديره وتأثره، ويصفها فى تلك الفقرة البديعة: «فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيه العلل والنهل سيحه، ويجبى إليه الثمرات والخيرات ثجه، ومررت

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة [illegible] و سنة [illegible] هـ فى عهد الناصر بن قلاوون.

٣

في مسالك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم».

ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر، فقد كان مجتمع القاهرة يعرف الكثير عن شخصه ونبوغه، وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه إليها على سمعة أوفى من ذلك بعض في مصر وعرفهم بها أكثر من انتشر. وأعجب ذوو العلم والتفكير والأدب بطرافة مادة مقدمته وجدتها وروعة بحثها. ولم يكن يمضى بالقاهرة حتى أقبل عليه الطلاب والعلماء من كل صوب. ويقول ابن خلدون في ذكر ذلك: «وانثال على طلبة العلم يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا»[1] وهذا ما تشير إليه التراجم المصرية؛ فيقول أبو المحاسن بن تغرى بردى في ترجمته لابن خلدون: «وسكن القاهرة وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاد»[2] ويقول السخاوي: «وتلقاه أهلها (أي أهل مصر) وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد عليه، ثم تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة»[3]. جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكي، ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول، وغيرها مما عرض إليه في مقدمته. وكانت هذه الدروس خير

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢.

(٢) كتاب المنهل الصافي لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب الخطية رقم ١٢٠٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣.

(٣) كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوي — نسخة دار الكتب الخطية رقم ... تاريخ ج ... ص ٣٦٧

اعلان عن غزير علمه، وشائق بحثه، وسحر بيانه. وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة، يخلب ألباب سامعيه بفصاحته وذلاقته. وهذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه، ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقريزي الذي سمعه ودرس عليه فتى[1]، وكذا الحافظ ابن حجر، فقد درس عليه، وسمع بعلمه ووصفه بقوله: «وكان فصيحا، حسن الترسل وسط النظم، مع معرفة تامة بالأمور، خصوصا متعلقات المملكة»[2] ونقل السخاوي عن الجمال البشبيشي أنه «كان فصيحا مفوها جميل الصورة»، وعن الركراكي أن محاضرته إليها المنتهى»[3].

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يجتذب أنظار المجتمع القاهري، وأن يستثير عطفه وتقديره. ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى. وفي أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوباني[4] فشمله برعايته، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به. وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق، وقد تولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام، في أواخر رمضان سنة ٧٨٤).

---

(١) [illegible]

(٢) كتاب إنباء الغمر في أبناء العمر لابن حجر (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثاني من القسم [illegible] ص ٣٠٩

(٤) هكذا يسميه [illegible]

فأكرم وفادة المؤرخ وشمله برعايته، يقول ابن خلدون: «وأنزلني مقامي، وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم». وقد حققت منيته للمؤرخ من الاستقرار ونعم الهدوء في ظل أمير يحميه ويكفله. فلم يمض قليل على ذلك حتى ولاه منصب التدريس بالمدرسة القمحية، بجوار جامع عمرو، وهي من مدارس المالكية، لعلية السلطان فيه. وتحدث ابن خلدون في ترجمته عن وصف مجلسه الأول في هذا المعهد، فقد شهده جمهرة من الأكابر، منهم السلطان شهوده والتفوا حول المؤرخ. وألقى ابن خلدون في ذلك الحفل خطبة بليغة، يعرض فيها عن بيان فضله. وقد تكلم فيه بعبارة مسجعة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الإسلامية، وعن بعض الملوك، ثم أشاد بما للملوك السلاطين المصرية من الفضل في نصرة الإسلام، وعمارته، ومن همم في إنشاء المساجد والمدارس، ورعاية العلم والعلماء والقصاد، ثم ذكر الملك الظاهر، وأشاد بعزمه وعدله وفضله، وعطف بعد ذلك على نفسه، وما أولاه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية «وما سمحت لي لجج الأرزاق، وخصوصاً من أفق المغرب إلى المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحته المشرق، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق، وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق، وأولى عناية وتشريفاً، وغمروني بإحسان ومعروف، وأسعفوا همتي بنصحها وبكرّمي تعرفه. ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف. الخ»[1].

(1) راجع في وصف هذا المجلس ووقائعه خاصة في فصول «التعريف» =

وبه لمصر [illegible] ذلك لدى مقدمة ابن خلدون [illegible]
في ذلك اليوم ومن [illegible] وأكبر [illegible]
لذلك [illegible] . [illegible]
[illegible] أحدثه [illegible] وفي ذلك [illegible]
[illegible] وفي ذلك [illegible]
[illegible] ابن خلدون في [illegible] كان [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

سنة ٧٩٧ ( راجع كتاب العبر — [illegible] ) [illegible]

[illegible] في مقدمة [illegible] . [illegible] في مصر [illegible]

(١) [illegible] — ص ١١٠

المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ (أغسطس ١٣٨٤م) [1] مكان القاضي المعزول جمال الدين بن خير السكندري. وكان ترفيعه إلى هذا المنصب الذي هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة يومئذ، بوثوب العاصفة من حوله، وتضرم تلك الخصومات التي كدرت صفو مقامه، وأذالت نفوذه، وانتزعته من المنصب غير مرة. يقول ابن خلدون في ترجمته: «وأقمت في الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من نزعات ملوكية، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه، فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه» [2]. وقد عرف ابن خلدون هذه النزعات الملوكية، وعرف أنها تنبعث من الشر والسخط في معظم الأحيان أكثر مما تنبعث من العطف والحلم، ولكنه يريد أن يفهمنا أن ترفيعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط، بل اختاره السلطان كما يقول «تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره».

– ٢ –

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون خطة القضاء لكن

(١) [illegible] ابن خلدون [illegible] في هذا المنصب [illegible] في سنة ٧٣٦ [illegible] [illegible] ج ٢ ص ٢٣ [illegible]

(٢) نسخة التعريف الخطية — ص ١١

حادث عادي ، فقد كان أحب ، وكان تقدمه في حظوة السلطان ،
وفي نيل المناصب ، سريعاً ، وكان منصب التدريس والقضاء
ذلك يضج بجمهرة الفقهاء ، والعلماء المصريين ، ولم يكن ثم مجلس
وفقه بمصر ، يظهر من الأجانب ، بقبول دعوتهم ، ولذا فقد ابن
ابن خلدون معتزاً بنفسه في حومة كدر خصومة وحسد ،
وجلس مجلس الحكم في المدرسة الصالحية بين القصرين ، فلم
يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر خصومة وسعاية ،
ويقول لنا ابن خلدون في سبب ذلك إنه أثبت حسن
نواياه القضاء ، كأنه ضوء لامع كان يسود القضاء المصري وفيه
من فساد وصفقات ، ولم تصدر أحكامه عن غرض وهوى ،
وقد كان عليه بعض القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل
وفساد في الذمة ، وبه حاول ثمة أن يسلك طريقاً بعيداً عن كل
شائبة ، وقمع فساد الحيل والشهود ، وتحمل كل سعاية وغرض ،
يقول : « فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ، ووفيت
جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الله لومة ،
ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً بين الخصمين ، آخذاً
بحق الضعيف من الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل
من الجانبين ، جانحاً إلى التثبت في سماع البينات ، ونظرت
في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ، فقد كان البر منهم مختلطاً
بالفاجر ، والطيب ملتبساً بالخبيث ، والحكام ممسكون عن
انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون
به من الاعتصام بأهل الشوكة ، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ،

معمول للقرآن وأئمة للصلوات ، يسمون عليهم بالعدالة فيظنون بهم خيرا ، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ، فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال (١) ثم تحدث عن وجوه الفساد التي شهدها ، وجد في إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى في سبيله ذلك من صرامة وقوة الشكيمة ، وكيف حقد عليه الأعيان والأكابر خلافا لم يصلح عليه رضاء الخاصة من قومه ، حتى ترعيه بسخط من كل جانب ، وسعته جموع الناس وكثرت في حقه السعاية لدى السلطان .

وهذا التعيين الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق ، بل هذا ما تشير به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره ، فيقول أبو المحاسن مثلا مشيرا إلى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة ووفرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا في التكلم في أمره » (٢) . ويقول ابن حجر ويتبعه السخاوي « فتنكر رأى ابن خلدون أنه من بحث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتبه عليه في ذلك ، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، ويسميه الزج ،

(١) كتاب العبر ج ٧ ، ص ٤٥٣ و ٤٥٤ .

(٢) [illegible] ج ٢ ص ٢٠١ .

وإذا غضب على إنسان في رجوه، فيصنع حتى تحمر رقبته (١).
وفيما ينقل السخاوي قصد الى التعريض والانتقاص. ونرى
أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد في نقده وتجريحه؛ ولكن
في قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر في قضائه عن نزاهة
وحزم وصرامة؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة، حينما
يقول عنه في موضع آخر: «ولم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة».

انقضت العاصفة على ابن خلدون بعد أشهر قلائل من ولايته،
وكثر السعي في حقه والإغراء به حتى «أظلم الجو بينه وبين أهل
الدولة» على حد تعبيره، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف
ومؤازرة، وصدمته في ذلك الحين نكبة أخرى هي هلاك زوجه
وولده وماله. وكان منذ مقدمه لمصر حث أسرته به؛ ولكن
سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس؛
فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخلية سبيل
أسرته ففعل، وأخذت سرب الأسرة وركبت البحر الى مصر.
ويروي لنا ابن خلدون تلك الفجيعة في قوله: «ووافق ذلك مصابي
بالأهل والولد. وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف
من الريح، فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم
المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب».
ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء،
أو بعبارة أخرى، حتى عزل. بيد أنه يريد أن نفهم أن هذه

(١) ابن حجر في رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) في ترجمة
ابن خلدون؛ والسخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ص ١٤٧.

العزل حتى محنته برغبته في العودة . وشملني نعمة السلطان أيده الله في سفر تعيين الرحمة، وتحية سبيل من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت في زعمه مصطلحها، ورده لي صاحبها الأول، وتخلصني من عقالها . فصدقت حينه لأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة ، وتناجى الآمال في العودة » والخلاصة أن ابن خلدون يؤكد لنا أن عزله كان نتيجة للدس والحقد والسعاية فقط ، وأنه أثار بصرامته سخط المجتمع القاهري ، وأنه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . [illegible] المقريزى ، حسبما يشير في قوله المتقدم ، أنه كان يرى غير ذلك في الأحكام والإجراءات وأنه لم يكن [illegible] أهلا لتولى القضاء ، وأنه كان مشغوفا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م)، أعنى بعد عام فقط من ولايته ، [illegible] التدريس ولم [illegible] كرة أخرى

على أن هذا العزل لم يكن [illegible] لسخط السلطان ونقمته ، فقد ثبت ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أستاذا لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التي أنشأها في حي بين القصرين ( المدرسة الظاهرية البرقوقية ) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطبة [illegible] فيها بالسلطان ، و [illegible] من قصوره في توسيع [illegible] . واشتغل بالتدريس في المعهدين حتى كان موسم الحج عامه سنة [illegible] وثمانين ، فاعتزم عندئذ [illegible] ، وأذن له السلطان

وعمرة معتادة . وغادر القاهرة في منتصف شعبان ، وقصد في البحر بطريق ينبع ، ثم سار بعد أداء الفريضة بطريق البحر أيضا حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، ووصل القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين ( ٧٩٠ هـ ) . وقصد السلطان تو وأخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف والرعاية . ثم ولاه كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش [1] . وولاه السلطان إثر ذلك بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة [illegible] . وجلس للتدريس فيها في محرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى في حفل الافتتاح كلمة [illegible] في حفل فخم . ونعلم أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك ، ونعرف أيضا من خلدون موضوع درسه الأول في ذلك اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكتبه وذيوع مذهبه ، ثم يقول إنه في كراسته المعهود [illegible] وفض ذلك المجلس ، وقد لاحظتني بالهيبة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب ، وأخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور [2] .

— ٣ —

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة ( نظارة ) خانقاه بيبرس ، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجئ الصوفية [3] ، ووفرت جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق ، عطلها ومدرها

(١) كانت موقع هذه المدرسة [illegible]
(٢) التعريف ( نسخة الخديوية ) ص ١٢١
(٣) كانت هذه [illegible] الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه .

الأمير يلبغا الناصري نائب حلب . وكانت تصل السلطان الظاهر
وطوائفه ومن يتصل به من الدسائس والخيانات فلم يسمع لتكرار
هذه التهم . وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل ، وزعيم
عصبة قوية من الأمراء والفرسان . وكان الظاهر برقوق من جهة
أسرته ونعمته ، ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤)
أن يغتصب العرش دونه ، وأن يجرده من منصبه ونفوذه ، وأن
يقصيه إلى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج بعينه ، فسار إلى
القاهرة في جموعه وحطم الظاهر برقوق جيشه ، وفر من القلعة ،
ودخل يلبغا الناصري القاهرة ، وأعاد الملك الصالح حاجي السلطان
المخلوع إلى العرش . وقبض على برقوق وأرسله سجينا إلى الكرك
(جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بعد
أمير آخر هو الأمير منطاش ، فقبض على الناصري ، وسار إلى دمشق
لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سجنه ، ثم عاد برقوق ودخل
القاهرة ظافرا منصورا ، واسترد عرشه في صفر سنة ٧٩٢ ،
لبضعة أشهر فقط من عزله . ويلخص ابن خلدون في ترجمته
فصول هذه الحوادث (١) ، ويمهد لها بشرح فلسفي اجتماعي يتحدث
فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان
الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء عليهم ، ونفخهم فيها روحا
جديدا من القوة ، وكل هذه الظواهر ، ثم يطبق نظريته على دول
الترك المصرية منذ صلاح الدين ، ويلخص تاريخها باختصار ، وهنا

(١) راجع ... في ... (التعريف) ص ٣٢٠ وما بعدها
وراجع ... (النجوم) ج ٢ ص ٢٤٢

يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته ، بحث الفيلسوف الاجتماعي الذي يعنى بتعليل الظواهر والكائنات ، واستقرائها في حوادث التاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة ، ففقد منصبه وأرزاقه كلها أو بعضها لسقوط حزب من تمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى عرش الملك رد إليه ، يدل على ذلك قوله في التعريف عن عود الظاهر : « ثم أعاده الله الى كرسيه للنظر في مصالح عباده ، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت ، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته » (١) .

ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما يشتغل بالبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف نفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧) ، في الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه . ولكنه يمضي في هذا التعريف مراحل أخرى ، في النسخة المخطوطة التي أتينا على ذكرها ؛ ويفصل حوادث حياته حتى المحرم سنة ٨٠٧ ، أعني قبل وفاته ببضعة أشهر . والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهابا حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة ، وهذا ما يؤيد رجوعنا اليها الى جانب النسخة المتداولة في كل ما هو أوثق وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتي من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٦٢

سوى سعيه في عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب. ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الموثقة، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبني عبد المؤمن ملوك المغرب، وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية، ثم يحدثنا عن مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس، وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا. ورد السلطان الظاهر بإهداء سلطان تونس. ثم بعث سنة سبع وتسعين الى المغرب يشترى عددا من الجياد، وزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية. ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر رسلها، وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد وسروج ذهبية. ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما «تناول بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الثابتة على الأبد».

# الفصل السابع

## في دمشق وفي معسكر تيمورلنك

[illegible]

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاماً يحول بينه وبين توليه ما علق به ذلك الجو من الدسائس الذي شغب في حقه، وأغرى السلطان بعزله. فلما ضعف ذلك الحزب وتغيرت الأحوال، انتهز السلطان أول فرصة لرده إلى منصبه. وكان ذلك في منتصف رمضان سنة احدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنسي قاضي المالكية. وكان ابن خلدون عندئذ أيضاً يلي [illegible] التي يستحقها من أوقاف مدرسة "صرغتمش" [illegible]

الثانية. ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل، فى منتصف شوال، فخلفه ولده الناصر فرج. وسرى الاضطراب فى شئون الدولة، واضطرمت الفتن والثورات الخطيرة حينا. فلما استقرت الأمور نوعا، استأذن المؤرخ فى السفر إلى بيت المقدس، فأذن له، وحل ابن خلدون فى المدينة المقدسة، يتفقد آثارها الخالدة، وشهد المسجد الأقصى، وقبر الخليل، وآثار بيت لحم، ولكنه أبى الدخول إلى كنيسة القمامة (قبر المسيح). يقول لنا "ورأيت أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسى، ونكبت عن الدخول إليه" ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان إثر عوده من الشام فى ظاهر مصر، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية. ويرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ، وأن نكبته كانت مظهرا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه. ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام وسطوا على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م) (١) ثم اخترق الشام جنوبا إلى دمشق. وروعت مصر لهذه الأنباء، واضطرب البلاط أيما اضطراب. وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب فى المقريزى. السلوك فى دول الملوك — (مخطوط دار الكتب المصرية) — ج ٣ ورقة ٢٢

والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن مؤرخنا لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عهد بالمغرب من تلك المهام السياسية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتملص ، لولا أن غمره يشبك صاحب السلطان "بلين القول ، وجزيل الإنعام"(١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار واستفحاله . وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ، فوصلت إلى دمشق في جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والأعيان في المدرسة العادلية . ونشبت الحملة المصرية مع جند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك محلية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافا حدث في معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ، وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة خطيرة ، وتولية أمير آخر يدعى لاجين ، فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا إلى القاهرة فوصلها في جمادى الآخرة(٢) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تعصف بالمؤرخ نزعة المغامرة كما تعصف الأزمة . فقد خشي أن تقع المدينة في يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ، ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين إلى معسكر الفاتح ، فيسلمه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على

(١) التعريف — النسخة المخطوطة ، ويقول المقريزي إن أوامر [illegible] ليشبك كانت صريحة في وجوب سفر ابن خلدون مع السلطان (السلوك — ج ٢ ورقة ٢٤) .

(٢) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٦

ما شجر بين القضاة من خلاف " وبلغني الخبر، فخشيت البادرة على نفسي. وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج، أو التدلي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر"[١]. وينتهي المؤرخ بإقناع زملائه فأدلوه من السور، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك ونائبه الذي عينه لولاية دمشق عند تسليمها، فقصد إليهم، والتمس منهم مقابلة تيمور، فساروا به إلى معسكره وأدخل في الحال إلى خيمة الفاتح. ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير في قوله: "ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئاً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه يشير بها إلى عصب المغل، جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه، فاتحت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها. وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم بيننا"[٢].

وتحدث الفاتح طويلاً إلى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه إلى مصر وما وقع له بها. ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وخلاصته، وطلب إليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب. وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتنبأ به منذ أربعين سنة أعني منذ تألق نجمه وبزغ مجده، وشرح له طرفاً من آرائه ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك. ولا ريب أن مفاوضة

(١) التعريف — نسخة مخطوطة.

(٢) التعريف — نسخة مخطوطة.

في شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم. فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك، وخرج القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة. ويقول ابن خلدون إن تيمورلنك صرفهم وسعدهم حينئذ. ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها، وتقع على قوله اثنتي عشرة كراسة صغيرة، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية (١).

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة في المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيهم السيف والعيث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها، وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب. على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة، وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم إليه مدعيا بالخلافة وأنه سليل بني العباس، وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته في الخلافة. وقدم ابن خلدون أيضا إلى الفاتح هدية هي «مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة

---

(١) لم تصل إلينا هذه الرسالة التي كتبها ابن خلدون في وصف بلاد المغرب، ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة ملخصة مما كتبه في ذلك في تاريخه الكبير في القسم الذي يخصصه لتاريخ البربر ويمهد له بوصف عام في جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها).

من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة »، ولما قدمها إليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . والتمس المؤرخ منه في هذا المجلس أماناً للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هي رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التتري، وما وقع له معه من محادثات ولقاءات، وقد كان فيها يؤدي دور السفير القديم . ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً معاصراً هو المقريزي يقص هذه الحوادث قصة أخرى فيقول إن ابن خلدون لدى وصول تيمورلنك في تسليم دمشق هو والقاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي، وأرسله بزعمه الى الفاتح إجابة لطلبه في عقد الصلح بعد أن فشل في فتح المدينة بالعنف، وأن ابن مفلح بذل جهوده لإقناع الزعماء بالتسليم، وأنه هو الذي تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغباته في جمع المال والأسلاب . ولكن تيمور نكث بعد ذلك عهده، وقبض على ابن مفلح وزملائه، واقتحم جنده المدينة ونهبوها وأضرموا النار فيها (1) . ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصري آخر هو ابن إياس، ويقول أيضاً إن زعماء الحركة اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية (2) . على أن المقريزي يؤيد رواية ابن خلدون

(1) السلوك — ج ٣، ورقة ٢٧

(2) ابن إياس في تاريخ مصر (بولاق) ج ١ ص ٣٣١، ٣٣٢

في مكان آخر فيقول إنه لما عزم التوجه للسلطان تدلى من سور المدينة وسار إلى تيمورلنك، فأكرمه وأجلسه وقربه عنده، ثم أذن له بالمسير إلى مصر فسار إليها، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأصحب معه جماعة يشيعونه (١).

وابن خلدون صريح في روايته في أنه هو المفاوض والوسيط في عقد الهدنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا، وأنه كان يمثل رؤساءها وقضاتها لدى تيمورلنك. ولا شك أنه صادق في روايته، وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقي مؤرخ تيمورلنك الذي كتب تاريخه قريباً من هذه الحوادث؛ فهو يصف لنا ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق بين زملائه العلماء والقضاة، ويصور لنا في صورة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات (٢). على أن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك في المفاوضة وفي تعهد شروط التسليم.

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صحبة الفاتح آمالا أخرى غير ما وفق إليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الاستقرار في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعمائه. على أنه لم يوفق بلا ريب في تحقيق مثل هذه الأمنية؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم المقام في دمشق، وذهب إلى تيمور يستأذنه في العود إلى مصر، فأذن له وطلب إليه في نفس

(١) السلوك ج ٢ ورقة ٢٨

(٢) ابن عربشاه في كتاب «عجائب المقدور» (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها
وراجع كتاب «مصر الإسلامية» ص ١٢١

القضية أن يقدم إليه مثله إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها، وبعث إليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر. وغادر المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) بعد شهرين فقط من مقدمه إليها. وهاجمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه، ولكنه وصل سالما إلى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة.

وهنا ينهى المؤرخ مقتطف بحثه «وحمدت الله على الخلاص» ويقول لنا إنه كتب إلى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك، ويصف له الفاتح وعظم بأسه وتناسق ملكه وروعة سلطانه.

— ٢ —

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء. وقد رأينا أنه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين. ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ، وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة، أنه بحاجة إلى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية، وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه. وكان المؤرخ قد بلغ الثامنة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبدا إلى مسند القضاء وحده، ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى إشارة موجزة إذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ «رحمه الله، ما كان أحبه

في المنصب »[1] . وكان ثمة شيء آخر من أسباب هذا الشغف بالمنصب . فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال . وكان منصب القضاء ، كما سنرى محور هذه المعركة . يتقلده ابن خلدون كلما استطاع أن يسترد مكانته في القصر وأن يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا في ركب السلطان الى الشام ، ووجد خصومه بعيدا عن القاهرة فرصة للدس في حقه ، وزعم بعضهم انه هلك في حوادث دمشق[2] . ويريد مؤرخ هذا العصر ان المنصب كان محفوظا له أثناء غيبته وعلى الأقل يرده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا انه على أثر هذا الإرجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الأقفهسي (في جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الأقفهسي وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان[3] . ولبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو مضطرب بأحقاد خصومه ، ولكنه يقول لنا انه لم يحتفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه سار كما كان من تأييد الحق والإعراض عن الأغراض ، فاضطرمت

(١) ابن تغري بردي في [illegible] ج ٢ ورقة ٣

(٢) [illegible] في [illegible]

(٣) [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

من حوله بدسائس المدينة، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعهودة، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة. وأن ابن خلدون عانى من خلاف خصومه مثل ما عانى من قبل، حتى انه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه إليه كثير من التهم. ويقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن «وادعوا عليه رأى على ابن خلدون أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له الإهانة من (مزيد عليه)» (١). وهكذا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت إلى نضال عنيف مريع الأثر، وفى مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينئذ بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على أن البساطى كان يمثل الحزب المناوئ للمؤرخ فى هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه، فإنه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين. ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الأول سنة ست (٨٠٦)، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع، وأعيد

(١) ابن حجر فى كتاب «رفع الإصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب المصرية) ورقة ١٥٩، وينقله السخاوى فى الضوء اللامع.

ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام . وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين البسطى لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البسطى فى ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث فى منصبه بضعة أسابيع فقط [1] . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير ، وهو فى منصبه . وقد بلغ السادسة والسبعين من حياته الحافلة بجليل الحوادث ، ورائع التفكير والابتكار . ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر [2] . وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون فى تدوين أخبار هذا العصر العجيب حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع ، أعنى إلى ما قبل وفاته بعدة أشهر فقط .

(١) راجع فى أدوار هذه المرحلة وحوادثها [illegible] وابن خلدون نفسه فى التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) . وتوجد تفاوت يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات .

(٢) السخاوى فى الضوء اللامع [illegible] ٣

# الفصل الثامن

## ابن خلدون والتفكير المصري

[illegible]

— ١ —

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً (٧٨٤ – ٨٠٨ هـ) وكانت بين مراحل حياته أهم حوادث وأشدها بؤساً.

وأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التي قضاها ابن خلدون بالمغرب والتي خاض خلالها معتركاً شاسعاً من المغامرات والدسائس الخطرة، وعانى كثيراً من الخطوب والمحن، كانت مسرحاً لمعارك الفتوح والسلطان، وهي في الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن، وهذه الحياة المضطربة العاصفة، يقابلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءاً ودعة.

وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبث بالمغرب ربع قرن يموج بهذه الشئون ؛ يتجرد من ثوب السياسى المغامر ، ليتشح بثوب العالم المفكر ، وليستوحى شهوده وجهوده من هذه الناحية . على أن المؤرخ لقى فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ووقوفه لقاء الفاتح التترى تيمورلنك .

وأما عن الإنتاج الأدبى ، فقد رأينا أن المؤرخ حقق بعض أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته ، بعد قبل مقدمه إلى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديدا ، غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر بين معترك من الكتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة فى التاريخ والمقدمة ، ونرى فى فصول عديدة أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أخبار الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى ختمه بأقرب التواريخ بعد أن كان يقف بها عند سنة ٧٨٣ ، عند خروجه من تونس موطنه . كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء مقامه بمصر ، واستمر فيها إلى قبيل وفاته . وكتب فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ومشاهداته بمصر ، وكتب أثناء مقامه بالشام وصفا لبلاد المغرب ورفعه إلى تيمورلنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مبادئه وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشئ له بمصر مدرسة حقيقية ، يجمعها آراءه ومباحثه ، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هذه المدرسة في بلد تفقه فيه للبحث والدرس أعواما طويلة . ومع ذلك فالتفكير المصري المعاصر ليس خلوا من تأثير ابن خلدون كما نرى . ولكن هذا التأثير الذي كان حريا أن يظهر مضمرا أن بحث في مدرسته التاريخية التي كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان مداره محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك إلى الروح الذي استقبل به المؤرخ من المجتمع المصري المفكر ، وهو روح نفور وخصومة . فقد حمل ابن خلدون في مصر بلسانه حملة على المصريين في مقدمته نسبهم فيها ، إلى غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب (١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما تكن هذه الملاحظة سمة البحث العلمي فإنه لا يمكن أن تتقبل ممن قيلت في حقهم بغير استياء وحفيظة . وكان طبيعيا أن يحدث هذا الغرض السيء أثره في شعور المجتمع المصري المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يعيش عندئذ بكثير من روح الخصومة والمنافسة ، وتسوده طبيعة من الحقد والعصبية . وكان مضطرم هذه المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ أو في التحصيل . وسعة زعامة الأدبية من حلاه وأرق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع الأزهري الأدبي ينقسم عندئذ في

(١) المقدمة — ص ٧٣

شيع وطوائف تجنح كل شيعة أو طائفة إلى زعيم أو شيخ معين من الزعماء، فتؤيد جهوده الأدبية وتشهر خصومه في ميدان الجدل. ولم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون أن ينتظم في سلك هذا المجتمع متنافسا في طلب الجاه والرزق، أن يسلم بصداقة الأولياء، أو يبتغي خالص مودته وتقديره. هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء يثير من حوله حقدا وبغضا.

كان طبيعيا أن تلقى آراء ابن خلدون ونظرياته في هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير، وأن تكون محدودة المدى والأثر. ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصري المعاصر. وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني محدث ومؤرخ العصر الكبير، فهو يقول لنا في كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر» إنه «اجتمع بابن خلدون مرارا، وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصا في التاريخ»، وإنه «كان لسنا فصيحا حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة»، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه (1). بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل في ترجمته كثيرا مما قيل في ذمه وتجريحه. فهو يقول لنا في تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع «ولكنه لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار

(1) رفع الإصر (مخطوط المشار إليه) ورقة ١٦٠ ونقله السخاوي في الضوء اللامع

المشرق»[1] ويعرض المقريزى فى مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير «البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية» وأن محاسنها قليلة، «غير أن للبلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسنا ما ليس بحسن»[2] وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر، وأنه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود، وأنه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس فى ورقة[3]. ثم ينقل فى هذا الموطن كثيرا من أقوال فى ذم المؤرخ وتجريحه، من ذلك أن أهل المغرب لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة[4]: كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما ولى هذا عددناها بالضد من ذلك، ومن ذلك قول الركراكى أحد الكتاب بديوان الإنشاء عن ابن خلدون «إنه عرى عن العلوم الشرعية» ثم ينقل ابن حجر أيضا بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التى قيلت فى حق المؤرخ، من ذلك ما نقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة[5]. وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشى، وهو «أن ابن خلدون كان فى أواخر أيامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد يتهم بالتخليط» وأنه

(١) [illegible] ص ١١٠

(٢) رفع الإصر ورقة [illegible]

(٣) رفع الإصر ورقة ١٥٩

(٤) ابن عرفة مفتى تونس، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا.

(٥) [illegible] ص ٧

كان « يكثر من الازدراء بالناس » ويعيب حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فإذا ولى المنصب غلب عليه حدته وخرق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تحدو إليها معارك التنافس والحسد . وقد كان البشبيشى (١) بلا ريب من أشد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل إلينا ولكن ابن حجر ينقل إلينا منه تلك العبارات الشخصية اللاذعة . وأخيرا ينقل ابن حجر إن ابن خلدون كان « متهما بأمر معرى » وأبى أن يتزيا بزى القضاة « لا لشىء سوى حب المخالفة فى كل شىء » (٢) .

وهذا موقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وآرائه فيه على الإجمال ؛ فهو على رغم تأدبه وعنايته وتحفظه يسابق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا فى كتاباته . ولا ريب أن فى حملته وأقواله مبالغة وتحاملا . ولكن لا ريب أيضا أن لها قيمتها فى تقدير الرأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد فى تجريحه .

---

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة ، وقد ولى محتسبة القاهرة مدة . راجع ترجمته فى الضوء اللامع — مخطوط المجلد الثانى ص ٥١١ »

(٢) رفع الإصر فى موضع مخصص من ترجمة ابن خلدون — ورقة ٥١ ب وورقة ١٦٠ .

والحملة عليه، وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر، والجمال البشبيشي، والركراكي، وبدر الدين العيني (العينتابي). وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طول القرن التاسع الهجري حتى جاء السخاوي في أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر في ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره، ولكن في لهجة مرة لاذعة تنم عن الحقد وقصد التشهير والهدم، أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح. وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو في معجمه (الضوء اللامع) في معظم تراجم شخصيات العصر؛ بيد أنه يعترف في كتاب آخر له بنفاسة مقدمة ابن خلدون، ويبدو أكثر اعتدالاً وتقديراً [1].

— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوي من أكابر المصريين المفكرين. وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقي الدين المقريزي. فقد درس المقريزي في فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه، وروعة محاضراته، وطريف آرائه ونظرياته. ويتحدث المقريزي عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال ويصفه «بشيخنا العلامة الأستاذ قاضي القضاة» [2] ويتتبع أخباره في مصر والشام في كتابه «السلوك» ويترجم له في كتابه «درر العقود الفريدة» بإسهاب وإعجاب،

(١) كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ — (مصر) ص ١٥١

(٢) درر العقود للمقريزي — ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠

ويرتفع في تقدير مقدمته ابن خلدون فيقول : «لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء سرى به النسيم» (١) . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوي على المقريزي موقفه من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط في تعظيمه وإجلاله ، ويقدم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقريزي كان ينتمي إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم بصحة نسبهم ، ثم يقول لنا «إن المقريزي غفل في ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل علي ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الألوهية» (٢) .

وقد تأثر المقريزي فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثرا كبيرا ، وظهر هذا الأثر واضحا في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» ، الذي انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار

---

(١) [illegible] من [illegible] المقريزي [illegible] في نسخة [illegible] ، [illegible] ونقله السخاوي [illegible] المقريزي — في الضوء اللامع للسخاوي ، ورفع الإصر وإنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الإصر ، ورقة ٦٠ — ونقله السخاوي في الضوء اللامع .

الكتب المصرية(١) .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقريزى إنه كتبه فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨، والذى يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره ، ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طول هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحا ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل الأحوال والوجود وطبيعة العمران . وهنا ، ففى رأى المقريزى أن أسباب الخراب والمحن ترجع أولا : إلى ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانيا : إلى غلاء الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد ( نفقات الإنتاج ) على الغلة ، وثالثا : إلى ذيوع النقد المنحط . ويتبع ذلك ببحث مفيد فى تاريخ العملة فى الدول الإسلامية ومصر ، ثم يتحدث عن طبقات المجتمع ، وأوصاف الناس . ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

(١) توجد منه نسخة خطية محفوظة بدار الكتب (١٧ مجاميع م) وتشغل صفحات من ورقة ١٤ إلى ورقة ٤٣

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش وهم السوقة.

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف.

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم.

(٦) أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن.

(٧) ذوو الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس.

ويذكر المقريزي أحوال كل فريق بالتفصيل، ثم يتحدث عن أسعار عصره وخاصة أسعار المواد الغذائية، ويختم بشرح رأيه في معالجة هذه المحن، وهو أن يقضي بنظام العملة، فلا يستعمل منها إلا المكيل الثابت من ذهب وفضة، وهي فكرة تثبيت النقد بعينها.

هكذا يحلو المقريزي في الشرح والتعليل. وهكذا نلمس أثر المؤرخ وصحبه في منهج تلميذه. ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزي في رسالته، وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعن أثر المكوس في الدولة، وأثر الظلم في خراب العمران، وكيف يسري الخلل إلى الدولة ونقصها وفرة العمران والغلاء والقحط، وغير ذلك مما يتعلق باختلال الدول وسقوطها (١). بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر في بعض ما كتبه السخاوي نفسه في كتابه «الإعلان بالتوبيخ» عن قيمة التاريخ وأثره في دراسة أحوال

(١) راجع هذه الفصول في مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٠ — ١٤١ و ١٥٧ — ١٥٨، ٢١٧ — ٢٢٠، ٢٤٦، ٢٥٢.

لأمم ، فهنا يبدو السخاوى أيضاً رغم خصومته لابن خلدون متأثراً بفكرته الفلسفية فى شرح التاريخ وفهمه .

وهنالك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقريزى تقديره لابن خلدون ، ويشيد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء ، ويقول إنه لما باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته[١] .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضاً فى اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » فإنه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته[٢] .

٣

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر ، وصلاته بمجتمعها ، وأثره فى حركتها الفكرية المعاصرة .

وهذه حقبة من حياة المؤرخ ، وهى حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاماً ، تختلف فى نوعها وظروفها عن حياته بالمغرب ، ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسياً يتقلب فى خدمة الدول والقصور المغربية ، ويخوض غمر الدسائس والمخاطرات لا نهاية لها . ولكنه عاش فى مصر عالماً وقاضياً ، وقد استثنينا مفاوضته مع تيمورلنك فى حوادث دمشق ، وسعيه فى عقد الصلح بين الأط

(١) المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

(٢) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففيه نصوص كثيرة من هذا الاقتباس .

القاهرة وسلاطين المغرب ، فإنه لم تتح له أن يؤدى فى سير السياسة المصرية دورا يذكر . وإذا كان ابن خلدون قد خاض فى مصر معترك الدسائس أيضا ، فقد كان هذا المعترك محلي محدود المدى ، شخصيا فى نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون فى مصر أكثر استقرارا ودعة ، وأوفر ترفا ونعماء من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن شيئا من الكآبة والألم المعنوى كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون فى مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله ، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهاد متصل . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض المواطن ، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أول مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته » ، وهو يكشف لنا عن هذا الألم فى مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا فى إذكاء هذا الألم المعنوى ، وهو يحدثنا عن هذه الفجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة فى فترات كثيرة ، وهو يشير إلى ذلك فى بعض المواطن ، حيث يقول عن نفسه : « لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لابسا برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية إلى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون فى بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل فى هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب

والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك في عدة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة، ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن جمال البشبيشي، ويقول الجمال في أولها : « إنه كان يوما بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه . . . . » فيلوح من هذه الإشارة أن المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية في الحي الذي تقع فيه هذه المدرسة أعني حي بين القصرين أو في أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولأن إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها [1]. وأما في النص الثاني فيقول لنا جمال ما يأتي مشيرا الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة « إلا أنه (أي ابن خلدون) تبسط بالسكنى على البحر وأكثر من سماع المطربات الخ »[2]. ويستفاد من ذلك أن المؤرخ كان يقيم في هذا الحين في أحد الأحياء الواقعة على النيل، ولعله جزيرة الروضة أو الضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لا تزال بقية من الأحياء الرفيعة التي قامت هناك منذ خطت الروضة وعمرت وصارت مركز البلاط في أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة في الضفة المقابلة لها من الفسطاط .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص ويراجع نصه في كتاب رفع الإصر لابن حجر في ترجمة ابن خلدون .

ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التى كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى .

هـذا وأما مثوى المؤرخ الأخير، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن «بمقابر الصوفية خارج باب النصر» . وتحدث المقريزى عن موقع هذه المقابر[1] وقد كانت تقع بين طائفة من الترب والمدافن التى شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان وخصصت لدفن الصوفيـة ، وقد كان المؤرخ كما ذكر، مدى حين شيخ خانقاه بيبـرس .

فهل يكشف لنا الزمن يوما عن مثوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثرا جليلا يحج إليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٦٣ .

# الكتاب الثانى

## تراث ابن خلدون
## الفكرى والاجتماعى

# الفصل الاول

## علم العمران كما يعرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون للتاريخ . علم العمران أو الاجتماع البشري . [illegible]
[illegible] . [illegible] المجتمع . [illegible]
[illegible] ابن خلدون [illegible] موضوع [illegible]
خلدون والعرب . [illegible] عليهم . [illegible]
الملك وأصنافه . نشأة المدن والأمصار . [illegible]

---

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين بل عن جميع المؤرخين قبله بأنه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط . وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل ، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية ، وكتب مقدمة مؤلفه التاريخي لتكون شرحا وتمهيدا يقرأ على ضوئه التاريخ وتفهم وقائعه ، فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق ، تسجل مذهبا جديدا في فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، وفي فهم التاريخ ونقده وتحليله .

ويصف لنا ابن خلدون هذا البحث الجديد الذي وفق إليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص «وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني» وذو مسائل «هي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى» . ويقول لنا إن هذا العلم «مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة» انتهى إليه

بالبحث خاص، ولم يقف أحد قبله على كلام فيه، اللهم إلا إذا كان عند هؤلاء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا، فهو أول من وضعه ووضع أصوله وشروحه .

ولهذا العلم الجديد الذى ابتكره ابن خلدون، فى فهم التاريخ، ودرسه أهمية كبيرة، فهو فى رأيه قانون لتمحيص الحق من الباطل فى الرواية وإظهار الممكن والمستحيل . وذلك «بأن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له . وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، والصدق من الكذب، بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه» . ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هى التى حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع الجديد ، وهو ما يسميه العمران أو الإجتماع البشرى[1] .

بيد أن ابن خلدون ينظر فى موضوعه من أفق شاسع جدا، ويجعل من المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة تأمله . ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته وبداوته إلى استقراره واستظامه فى المصر والدولة، وتردده بين الضعف والقوة، والفتوة والكهولة، والنهوض والسقوط، ويستقصى خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وخواصه، وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة، وما يعرض هذه العناصر فى حياتها الخاصة والعامة من الظروف

(١) المقدمة — ص ٣١

والأحوال ، وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ، فهو في الواقع يفتح مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .

وفي مكان آخر يلخص ابن خلدون مادة علمه من الناحية الموضوعية فيما يلي «ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك» [١]

ثم يقسم بعد ذلك موضوعه إلى ستة فصول كبيرة هي .

الأول — في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

الثاني — في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث — في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية

الرابع — في العمران الحضري والبلدان والأمصار .

الخامس — في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس — في العلوم واكتسابها وتعلمها [٢] .

وهذا التقسيم الإجمالي يقدم إلينا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه مادة هذا العلم الذي يسميه بالعمران أو الاجتماع البشري ، وهو تقسيم تبدو دقته وبراعته متى استعرضنا بعد ذلك مواد مقدمته كلها ، ورأينا كيف يبسط الموضوع ويشعب إلى أبعد الحدود ، وكيف ينظم ابن خلدون حلقات بحثه في سلسلة وثيقة الإتصال والتماسك ، تشهد بتفوق هذا الذهن العبقري ، وطرافته ، وقوة تدليله وجداله .

---

(١) المقدمة — ص ٣٣ .

(٢) المقدمة — ص ٣٤ .

— ٢ —

لسنا نحاول في هذه الرسالة أن نتناول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية بالتحليل والنقد [1]، فتلك مهمة لا يتسع لها هذا المقام الضيق. ولكنا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدمته بإيجاز، وأن نقف قليلاً ببعض نظرياته الاجتماعية.

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء في إيراد الأخبار والوقائع، سواء بعامل الغرض والتحيز، أو بعامل السهو والجهل بطبائع العمران وأحوال المجتمع، وعدم الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل. ثم يمثل لذلك بعدة أمثلة يناقشها، ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها. بيد أن هذه المناقشة لا تخلو أحياناً من الضعف أو الهوى. فأما الضعف فيبدو مثلاً في أسباب دفاعه عن قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي، وفي دفاعه عن خلال الرشيد، ثم دفاعه عن خلال المأمون [2]. وأما الهوى فيبدو مثلاً في حديثه عن نسب الخلفاء العبيديين (الفاطميين)، ونسب الأدارسة بالمغرب الأقصى، ومحاولته نقض المطاعن التي وجهت إلى نسبيهما [3]. وقد رأينا أن حياة ابن خلدون كسياسي يتقلب

(١) يستطيع من يريد شرحاً وافياً لمقدمة ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والاجتماعية أن يرجع إلى رسالة صديقنا الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التي نقلت إلى العربية.

(٢) المقدمة — ص ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٧.

(٣) المقدمة — ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠.

في مختلف الدول والعصور تجعله يخضع أحياناً للأثرة والعصبية والهوى. على أن معظم حديثه في هذا الفصل طريف ممتع، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين معقولة وجيهة. وهو يتدرج من ذلك إلى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقاً لهذا القانون الذي يتكون في رأيه من درس العمران أو الاجتماع البشري على نحو ما قدمنا.

بعد هذا التمهيد النقدي المستفيض، يتحدث ابن خلدون عن العلم الذي ابتكر موضوعه، فيبدأ طبقاً لتقسيمه الذي أثبتناه، بالحديث عن العمران أو الاجتماع البشري بصفة عامة، ويشرح طبيعة الاجتماع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للأقاليم، وتأثره بظروف الجو من حر وبرد واعتدال، وأثر ذلك في أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم، ويستعرض خلال ذلك جغرافية العالم كما كانت تعرف في عصره، وهي جغرافية الأقاليم السبعة. ونحن نلمس في هذا الفصل كثيراً من الطرافة والخطأ. وفي الفصل الثاني يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوي، فيتحدث بإفاضة عن المجتمع البدوي وخواصه ويقارنه بالمجتمع الحضري. وهنا إحدى النظريات الاجتماعية المبتكرة التي يضعها المؤرخ. فهو يحدثنا عما يسميه «العصبية»، وهي عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والاتحاد، وقوامها في نظره الاتصال برابطة النسب والقرابة وما إليهما من الروابط المماثلة. وهذه العصبية هي منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة في المجتمع البدوي، وتكون هذه الرياسة لأهل العصبية، ومدى الحسب الذي تترتب عليه العصبية والرياسة،

في نظره أربعة أجيال، وقد يمتد الى خمسة أو ستة ولكن في حالة انحطاط وضعف. وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب. وينتقل الى عشيرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكثرة والقوة وهكذا. وغاية العصبية هي الملك (١). وهنا يتحدث ابن خلدون عن خواص الملك واختلاف صوره ومداه باختلاف الأمم التي يقوم فيها، وأثر العصبية في الأمم المغلوبة وكونها مولعة دائما بتقليد الغالب.

ثم يحدثنا ابن خلدون عن العرب. وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل. فالعرب في نظره أمة وحشية، تقوم فتوحهم على النهب والعيث، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران، ولأنهم أهل تخريب ونهب يخربون المباني وينهبون الأرزاق، ويفسدون الأعمال والصنائع، وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك، لأنهم لبداوتهم ووحشيتهم أكثر شعورا بالاستقلال والحرية لا يدينون لرياسة أو نظام، وسياسة الملك تقتضي النظام والخضوع والانقياد (٢). ويستمر ابن خلدون بعد ذلك في حملته على العرب في مواضع أخرى من مقدمته، فيقول لنا إن الأبنية التي يختطها

(١) راجع شرح ابن خلدون لنظريته في العصبية، وخواصها، وتطورها في المقدمة ص ١٠٨ — ١١٧.

(٢) المقدمة ص ١٢٥ — ١٢٨

العرب يسرع إليها الخراب ، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع وإنهم ليسوا أهلا للعلم ، وإن معظم حملة العلم في الدول الإسلامية أكثرهم من الأعاجم (١) . وقد كان ابن خلدون يعتمد في هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة ، ولكنه مع ذلك يبالغ في حكمه على العرب ، وتعوزه الدقة في كثير من آرائه . ولا يسع المقام هنا لمناقشته وتفنيد آرائه إفاضة . ولكنا نقول فقط في شأن الفتوحات العربية ، إن العرب هم الذين افتتحوا ودوخوا الشام ومعاور الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس ، وافتتحوا شمال إفريقية حتى المغرب الأقصى ثم إسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه إلى فرنسا . وهذه كلها أقطار وعرة وليست من السهلة التي يسهل غزوها . وقد فتحها العرب جميعا في أقل من قرن ، وفي وابل من النصر باهر . ثم إن العرب لم يخربوا هذه الأقطار ، ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة . ويكفي لكي ندحض نظرية ابن خلدون في خوض الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية في المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية في إسبانيا . وقد [illegible] الذي يصدق رأي ابن خلدون في العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكر أنه رغم انتسابه إلى أصل عربي ينتمي في الواقع إلى ذلك الشعب البربري الذي فتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم وحكمهم ، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة ولا مناص أن يندمج أخيرا في الكتلة الإسلامية ، وأن يخضع راغما لرياسة العرب في [illegible]

---

(١) المقدمة ص ٣٠٠ و ٣٣١ ؛ ٤٧١

وسباتها حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه. والخصومة بين العرب والبربر في إفريقية وسببها شهيرة في التاريخ الإسلامي. وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد. ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يصطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام، ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت في نعمهم، فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب.

بيد أنه يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون يجيش فيه نزعة علمية وأخرى قومية، فابن خلدون يحمل على العرب الذين ينتسب إليهم بمثل هذه الشدة، ولكنه يحاول دائما أن يدعم نقده بالأدلة والشواهد التاريخية. ويطبع حديثه دائما نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة. ثم هو يجيش فيه أيضا بعاطفة وطنية قوية، فهو ينطق فيه بلسان ذلك الوطن البربري الذي غزاه العرب وخضع فيه مدى أحقاب وبسطوا عليه سلطانهم الديني والسياسي، ولبث عصورا يناضل في سبيل حريته واستقلاله.

وفي الفصل الثالث يتحدث ابن خلدون عن الدولة والملك. فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية على نحو ما تقدم، وللدولة خواص معينة، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها، وللدعوة الدينية أثر في تقوية الدولة ولكن الدعوة الدينية لا تتم إلا بالعصبية أيضا. والخلاف يوهن الدولة ويدني أجلها. وللملك كما للدولة طبائع وخواص، منها الانفراد بالمجد، والترف والدعة والسكون وهي خواص إذا استحكمت، فإنها تحمل الدولة إلى الهرم ثم الفناء. ثم

إن للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص، ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى نضوجها ثم شيخوختها وسقوطها بثلاثة أجيال في الغالب، ويقدر الجيل بأربعين عاماً، فعمر الدولة لا يعدو في الغالب مائة وعشرين سنة إلا في أحوال نادرة (١). وهذه النظرية تتفق مع نظرية العصبية التي تقدمت عند ذكر العصبية. وهنا يبلغ ابن خلدون ذروة الابتكار والطرافة وتبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع في منتهى القوة والروعة. وفي رأينا أن هذا الفصل هو أبدع أقسام المقدمة وأمتنها في العرض والتدليل، وأسطعها في الدلالة على براعة هذا الذهن القوي الممتاز.

ويستمر ابن خلدون في موضوع الدولة والملك طويلاً، فيتحدث بعد ذلك عن تحول الدولة من البداوة إلى الحضارة، وأطوارها المختلفة، وأثر الموالي والمصطنعين في هذا التطور، ثم يتناول الملك وخصائصه والإمامة والخلافة واختلاف الآراء في شأنهما، ومذهب الشيعة، ثم عن تحول الخلافة إلى الملك ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد وغيرهما، والألقاب وخططها الدينية وهي القضاء والعدالة والسكة، ثم عن الملك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والجباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل، ورسوم الملك وشاراته المختلفة، والحروب ومذاهبها، والجباية والمكوس ونظم التجارة، ويختتم ابن خلدون هذا الفصل بالكلام عن الظلم، وكونه يؤدي إلى اختلال الدولة وخراب العمران وحديثه هنا أيضاً قوي ممتاز.

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار، ونشأة

(١) المقدمة — ص ١٤٢ و ١٤٣

المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها، من خصب ورفاهة وجدب وفقر، وهو اختلاف يتعدى أثره إلى الأقطار التي تضم هذه المدن، ثم موقف أهل البادية من المصر، وتوقف مدى الحضارة في المصر على حالة الدولة، وكون الحضارة هي غاية العمران ونهاية عمره، وأنها مؤذنة بفساده، وتفاوت الأمصار في أمثلة الصنائع والنعمة، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة.

وفي الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة، ثم عن التجارة وما يتعلق بها من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها، ثم عن الصناعات وأنواعها وأحوالها بصفة عامة، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلا خاصا.

ويخصص ابن خلدون الفصل السادس للكلام عن العلوم والتعليم. والعلم من طبائع العمران، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران، ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية (الوضعية والعقلية)، ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرؤيا والسحر وأسرار الحروف والكيمياء والأعمال الروحانية والأسرار الخفية والاستدلال على الضمائر. وهي جميعا عنده من أنواع العلوم أو مما يلحق بها. ثم يحمل على الفلسفة والمشتغلين بها ويعتبرها علما باطلا، ويسوء بخطرها على الدين والعقيدة، ويناقش بعض الأصول الفلسفية ويفندها. ويتحدث بعد ذلك عن التربية ومذاهبها وخواص العلماء وكون معظمهم في الإسلام من الأعاجم؛ ويختتم بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره.

# الفصل الثانى

## علم السياسة والملك قبل ابن خلدون

ابن خلدون مبتكر العمران [illegible] ابن خلدون . كتاب السياسة [illegible] الأحكام [illegible] سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى . [illegible] ابن خلدون عن كتاب الطرطوشى [illegible]

هذه هى محتويات تلك المقدمة الشهيرة التى يعالج فيها ابن خلدون علمه الجديد « العمران » ويمهد به لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هى الكتاب الأول من تاريخه العام . ولكنها تبدو كأنها وحدة ضخمة مستقلة ، تمتاز بروعة ابتكارها ، وشسوع أفقها ، وطريف موضوعاتها ، وعمق مباحثها . وإذا كان هذا البحث الجديد الذى يفتتحه ابن خلدون يمتاز بالإفاضة والبراعة والدقة بما يثير الإعجاب والدهشة ، فإنه يحملنا على التساؤل فى الوقت نفسه ، ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقى من ذلك الابتكار والوضع ؟ وهل كان له الفضل فى ابتداع هذا العلم ، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة فى دراسة سبق أن عولجت من قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وإنه ألهم إليه

فيه (١) ، بل هو لا يكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط ، ثم نصيب هذه الدعوى من الصحة؟ لقد حاولنا أن نستقصي مصادر ابن خلدون فيما كتبه المفكرون المسلمون قبله مما يمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما ناله الفيلسوف المؤرخ من أسلافه ، فانتهينا بعد طول البحث الى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومخترع علمه ، وصاحب الفضل الأول في ابتكار هذا العلم الجديد الذي يسميه « بالعمران أو الاجتماع البشري » . نعم ان هنالك موضوعات قد يعالج ابن خلدون عولجت من قبل ، وهنالك مباحث تمس بعض موضوعات علمه ، ولكن هذه كما سنرى دراسات محدودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذي يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة في سلك متماسك منتظم الروابط والشواهد ، وكل ما حققه أسلافه في ذلك لا يعدو بحوث ضئيلة مبعثرة هنا وهنالك لا تجمعها وحدة عامة ، ولا يمكن أن تصلح وحدها أساسا لمثل هذه الدراسة الاجتماعية الممتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التي يشير ابن خلدون الى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية الى أي حد يرتفع ذلك الذهن الفائق في أفق الطرافة والابتكار .

لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكرا مسلما يجعل المجتمع وتكوينه وخواصه موضوعا لدرسه وتأمله ، ولكنا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون منذ القرن الثالث الهجري موضوع السياسة والملك كأنه علم خاص أو أدب خاص ، وقد فهمت السياسة

(١) المقدمة — ص ٣٣

في هذا العصر بمعنى ضيق جدا ، هو شرح الخلال التي يجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يحكم بأهلية وكفاية . وثمة مؤلفات فيه يبحث من ناحية الشروط التي يجب توفرها شرعا في الإمام أو السلطان ، وما يخرجه عن أهلية الحكم ، ثم الخطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين .

وأقدم ما انتهى إلينا في هذا الموضوع ما كتبه ابن قتيبة الدينوري [1] في كتاب « عيون الأخبار » حيث يفرد فصلا خاصا عنوانه « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، وفي رسوم صحبته ومعاملته ومشورته وما يجب عليه نحو الرعية والحكام [2] . وعمدة ابن قتيبة في حديثه ، مجموعة من الأقوال والحكم المأثورة ، ومنها كثير منسوب لحكماء الفرس ، ولهذا فحديثه أقرب إلى النصح والموعظة منه إلى العرض والشرح .

وفي أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفا مسلما هو أبو نصر الفارابي [3] يعنى في مباحثه بموضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث في كتابه « مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع والتعاون ، وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة ( السلطان ) ، وما يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل المدن الفاضلة والمدن الضالة ، ثم عن

---

(١) توفي ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م .

(٢) راجع هذا الفصل في كتاب عيون الأخبار ( طبع دار الكتب ) ج ١ ص ١ — ١٠٧ .

(٣) توفي الفارابي سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م .

الصناعات وأقسامها (١) كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جدا .
وظهرت في أواسط القرن الرابع « رسائل إخوان الصفا » الفلسفية ،
وفيها هنا وهناك لمحات وشذور عن بعض الموضوعات السياسية
والاجتماعية . وتعتبر إخوان الصفا « السياسة » علما مستقلا
بذاته ويقسمونها إلى خمسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ،
والعامية ، والخاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس
والسنن الزكية وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة .
وأما السياسة الملوكية فهي « معرفة حفظ الشريعة على الأمة ،
وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة
الحدود وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة ورد المظالم
وقمع الأعداء وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة
العامية وهي الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان
والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر ، فهي معرفة طبقات
المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم
وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم ... الخ . وأما السياسة الخاصية
فهي معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته . وأما
السياسة الذاتية فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه (٢) .
ويتحدث إخوان الصفا في أمكنة أخرى عن الغرض من الملك
وعن أنواع الرياسة ، وعن الإمامة وشروطها وأحكامها (٣)

(١) راجع كتاب السياسة المدنية (طبعة حيدر آباد) ص ٥٣ و ٥٩ و ٦٧ .

(٢) رسائل إخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٠ و ٢٠٩ .

(٣) رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٣ وج ٤ ص ٣٠ وما بعدها وص ١٠١ .

ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام كبيرة: الرياضية، والشرعية الوضعية، والفلسفية الحقيقية. ولكل قسم منها أنواع وفروع كثيرة. وتدخل الآداب بأنواعها في القسم الأول، وعلوم الدين والقرآن والسنة في القسم الثاني، والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات في الثالث. ووضع السياسة في باب «الإلهيات»[1]. كما يتحدث حول الصنائع عن تقسيم الصنائع وما تحتاج إليه من العناصر[2]. ويتحدثون عن «تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق» في فصل خاص[3]. كل ذلك في أسلوب علمي [illegible] البيان والتدليل.

وهنا نقف قليلا، فنجد في رسائل الفارابي وإخوان الصفا شيئا مما تناوله ابن خلدون في مقدمته. مثال ذلك حديث الفارابي عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع، وعن نشأة القرى والمدن، وحديث إخوان الصفا عن تقسيم العلوم، والصنائع، ثم عن تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق. وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل كما بينا، وجعلها من موضوعات علمه. ولكنا نجد بالمقارنة أن ابن خلدون لا يكاد يشترك في هذه الموضوعات مع الفارابي وإخوان

---

(١) رسائل إخوان الصفا — ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) رسائل إخوان الصفا — ج ١ ص ٢١

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ١ ص ٢٢٢ و ٢٢٥.

(٤) راجع المقدمة في ضرورة الاجتماع للإنسان (ص ٣٤)، وفي نشأة المدن والأمصار (ص ٢٨٣ وما بعدها) وفي تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ وما بعدها)، وتقسيم الصنائع (ص ٣١٨ وما بعدها)، وفي تأثير الهواء في أخلاق البشر (ص ٧٢ — ٧٣).

الصفا أكثر من رؤوسها. وبينا يتناولها الفارابي وإخوان الصفا بطريقة فلسفية علمية محضة إذا بابن خلدون يتناولها من الناحية الاجتماعية، ويفيض في عرضها بطريقة عملية محضة ويذهب في الشرح والتدليل مذهبا آخر، فهو لا يخلو هنا أيضا من الاستقلال والطرافة والابتكار.

ثم نجد ذلك البحث الذي اصطلح على تسميته «بالسياسة» يتخذ مكانه وينتظم في أدب خاص، ويعالج تارة من الناحية الفقهية المحضة، وتارة من الناحية الأخلاقية والفلسفية. ومن أشهر الكتب التي تعنى بمعالجته الفقهية، كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)، وهو من أشهر وأقيم الكتب في هذا الموضوع. وفيه يتحدث المؤلف بالأخص عن الإمامة وشروطها، والإمام وما يجب أن يتوفر فيه من الصفات، وما يخرج به عن الإمامة، وما يجب على الأمة نحوه، ثم عن الوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضاء وشروطه، والفيء والغنيمة والجزية والخراج وأحكامها، والإقطاع، والدواوين، والحدود، كل ذلك من الناحية الفقهية وعلى المذهب الشافعي. وللماوردي أيضا رسالة أخرى عن «الوزارة وسياسة الملك» يتحدث فيها بالأخص عن الوزارة وما يجب أن يتوفر في متوليها، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته وحقوقه نحو السلطان، وحقوق السلطان نحوه وأنواع الوزارات، وعلائق الوزير والسلطان. وبحث الماوردي هنا أخلاقي فلسفي تتخلله الحكم والأقوال المأثورة.

وفي كتاب «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي الأندلسي

المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) يتقدم البحث قليلا . ويعالج الطرطوشي موضوعه من الناحية الأخلاقية والدينية ، ويتناول بعض موضوعات لم يتناولها أسلافه فيحدثنا عن الخصال الواجبة في السلطان ، والصفات التي تؤدي إلى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان المفردة ، وعيوبه المفردة ، ويتكلم بعد ذلك عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية ، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها ؛ ثم عن الجزية وشروط الذمة ، وعن الدواوين ، وعن الظلم وسوء عواقبه ، ثم عن الحروب وتدبيرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشي هو أكبر مؤلف في نوعه ، ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه ، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، وتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشي في ديباجته « إن كتابه لم يسبق إلى مثله أقلام العلماء » . على أنا نرى مما تقدم أن غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشي إلى موضوعه ، وإن كان الطرطوشي يمتاز بالإفاضة وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ويخص ابن خلدون كتاب الطرطوشي بالذكر من الكتب التي تمس موضوعه لأنه تحدث عن تلك الكتب ، فيقول إنه في كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزء صالح من موضوع علمه إلا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين . وكذا في كلام ابن المقفع ، وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنا ، وإنما يلبسها في ذكره منحى الخطابة والترسل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشي قد

حوم فى كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية، ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، إنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ... وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده» (١). ولو وقف ابن خلدون يعالج بعض الموضوعات التى يعالجها الطرطوشى، مثل الدواوين، ومذاهب الحروب، وعوائد الظلم، ولكنه ينحو فى العرض والتدليل منحى آخر، ولا نلمس فى كتاب الطرطوشى أثراً للمذهب الاجتماعى الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه إلى منتهاه.

ولدينا رسالتان أخريان فى هذا الموضوع، أعنى موضوع السياسة الملكية هما «التبر المسبوك فى نصائح الملوك» المنسوب للامام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية للسلطان محمد بن ملكشاه، وهو مجموعة نصائح فى الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها السلطان، ومعظمه مواعظ وقصص قديمة (٢)، و«المنهج المسلوك فى سياسة الملوك» كتبه عبد الرحمن بن عبد الله للسلطان صلاح الدين الأيوبى (أواخر القرن السادس) فى نفس الموضوع، أعنى الخلال السلطانية، وفيه فصل حديث فقهى عن القضاء [illegible]، ومواعظ وقصص قديمة ملائمة.

بقى لدينا من هذه الثلاث مؤلف يشير بشيء من التوسع فى فهم

(١) المقدمة ص ٣٣

(٢) [illegible] «التبر المسبوك» [illegible].

الموضوع وشيء من الطرافة في عرضه، ذلك هو كتاب «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لمؤلفه محمد بن علي بن طباطبا المعروف «بابن الطقطقى» الذي عاش، كما يستنتج من إشارات في كتابه، في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري بعد ذهاب الدولة العباسية، وكتب مؤلفه في أواخر سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢م) بمدينة الموصل لأميرها عيسى بن ابراهيم (١). وخصص ابن الطقطقى في كتابه فصلا كبيرا «للأمور السلطانية والسياسات الملكية» (٢) غير أنه عرض موضوعه في صورة أخرى، ويقول في مقدمته إنه لا يقصد البحث في أصل الملك وحقيقته وتقسيمه إلى رياسات دينية ودنيوية من خلافة وسلطنة وإمارة وولاية، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن، ومذهب أصحاب الآراء في الإمامة، وإنما يقصد البحث في موضوع «السياسات والآداب التي ينتفع بها في الحوادث الواقعة، والوقائع الحادثة، وفي سياسة الرعية وتحصين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة» (٣). ويتحدث ابن الطقطقى في هذا الفصل عما يجب أن يكون عليه الملك من الخصال وما لا يجب، ثم عن حقوق الملك على الرعية، وحقوق الرعية. ويتحدث بعد ذلك عن مراتب الطاعة وخصوصها في الدولتين الأموية والعباسية، وكيف

(١) راجع مقدمة [illegible] سنة ١٨٥٨، [illegible] مقدمة [illegible] (ص ١٤ و ١٥).

(٢) الفخري [illegible]

(٣) الفخري — ص ١٠.

كان فقدها عملا من أهم العوامل فى وهن الدولة العباسية وسقوطها ، ويشرح نظريته بالوقائع والحقائق التاريخية [١] . ثم يتحدث عن الحقوق الواجبة للرعية على الملك ونوع السياسات التى يجب أن يتبعها نحو مختلف الطبقات ، والنظر فى العقوبات وتقديرها وظروفها ، وخطر الأهواء والشهوات على الملك والدولة ، ويورد خلال ذلك شيئا من وصايا الحكماء اليونان والفرس . ولكن ابن الطقطقى لا يعنى بعرض المبادئ والقواعد النظرية عنايته بتطبيقها على حوادث التاريخ ولا سيما تاريخ الدول الإسلامية . وهو يتحرر فى عرضها وتطبيقها بنزعة نقدية قوية قلما نلمسها فى آثار أسلافه ، كما أنه يمتاز بحسن التدليل وتطبيق النظريات على الوقائع . بل نستطيع أن نقول إن هذا الفصل الذى يمهد به لتاريخ الدول الإسلامية كان فتحا جديدا فى النقد التاريخى ، وفى درس الدولة من الناحية الاجتماعية . وهو بلا ريب مما يدخل فى مواد تلك الدراسة الاجتماعية الشاسعة التى استخرج منها ابن خلدون علمه ومذهبه الاجتماعى . بيد أن ابن خلدون لم يطلع فيما يظهر على هذا الأثر الذى يعالج بعض نواح من موضوعه ، فقد كان الكتاب حديثا بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله وذيوعه من المشرق الى المغرب ؛ هذا الى أن الموضوع الذى يعالجه ابن الطقطقى ضيق جدا بالنسبة لدراسة ابن خلدون ؛ وإذا كان كلاهما يشترك فى فهم التاريخ بطريقة تحليلية ، فإن ابن خلدون يتفوق على سلفه تفوقا عظيما بسعة أفقه ، وينهج فى دراسته سبيلا

(١) الفخرى ص ٣٥ و ٣٦

أخرى تحتفظ بكل جدتها وطرافتها .

* * *

والآن وقد عرضنا كل ما كتبه المفكرون المسلمون فى موضوع الدولة والسياسة الملوكية والمدنية والاجتماعية قبل عصر ابن خلدون، وبينا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن يمد ابن خلدون أو يلهمه بموضوع علمه، وإن كان يعرض فى نواح ضئيلة مما يتناوله ابن خلدون فى دراسته، فإنا نستطيع أن نقرر مع ابن خلدون أن ذلك العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى هو علم لم يوجد قبله فى التفكير الإسلامى، بل لم يوجد فى التفكير القديم كله، إذا استثنينا بعض ما كتبه أعلام الفلسفة اليونانية ولا سيما أرسطو عن نظم الدولة والمجتمع. وقد كان ابن خلدون قد استقى شيئاً من تراث الماضى، وقد يكون من هذا التراث العربى ولا سيما تراث أرسطو. وقد كان ابن خلدون فيما يظهر يقف على بعض نواحى من فلسفة أرسطو، كما يبدو من إشارته إلى «سياسة» أرسطو، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو (١). على أنه لا ريب فى أن هذا الاطلاع لم يكن ذا شأن يذكر سواء فى وضع فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجتماعية .

فابن خلدون إذاً، كما قدمنا، أستاذ موضوعه، ومخترع علمه. وهو يقول إن تحقيق علمه جديد مبتكر، وإنه ليس من علم السياسة المدنية الذى تناوله أسلافه من قبل، بل هو علم مستنبط النشأة

(١) راجع المقدمة — ص ٣٣٢ . وقد وضع ابن خلدون كما بينا ملخصات لبعض كتب ابن رشد، ولكنها لم تصل .

مستقل بذاته، لم يعالجه مفكر قبله، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته واستيعابه.

وسنرى أن هذا العلم الذي استحدثه ابن خلدون واستنبطه، يتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة، في علوم الاجتماع، وفلسفة التاريخ، والعمران، والاقتصاد السياسي.

وسنبين في موضع آخر، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابن خلدون الاجتماعي إلى أسمى مكانة، ويعتبره منشئ علم الاجتماع الحديث وواضع أسسه.

# الفصل الثالث

## كتاب العبر والتعريف

مؤلف ابن خلدون التاريخي . قيمته الأدبية لا تعدو قيمته كتاريخ عربي . منهجه التاريخي وأسلوبه في مقدمته . منهجه في كتاب العبر . طريقته وأسلوبه . كتاب التعريف أو ترجمة ابن خلدون لنفسه . مخطوطات التعريف . صراحة ابن خلدون في الكشف عن كثير من حياته . مواطن التشويه . الحقائق التي يقتضي في تعريفه عن ابن خلدون الرجل

١

إن هذا الكتاب الأول الذي عرض فيه ابن خلدون نظرياته في التاريخ والاجتماع، والذي يشغل وحده مجلداً كبيراً، ليس إلا مقدمة لمؤلفه التاريخي الضخم أو تاريخه العام.

ويسمي ابن خلدون مؤلفه التاريخي: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ويقسمه إلى ثلاثة كتب كبيرة على النحو الآتي:

الأول — في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب. وهذا الكتاب هو الذي عرضنا إليه فيما تقدم، وهو المعروف بالمقدمة.

الثاني — في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والإفرنجة .

الثالث — في أخبار البربر ومن إليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ويقع مؤلف ابن خلدون في سبعة مجلدات ضخمة . الأول يشمل الكتاب الأول ، وهو علم العمران ، أو المقدمة ؛ وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثاني . ويستغرق الكتاب الثاني وهو أخبار العرب وأجيالهم ، وأخبار الأمم القديمة والتركية والإفرنجية حتى القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) أربعة مجلدات ، من الثاني إلى الخامس ؛ ويشمل الكتاب الثالث ، وهو أخبار البربر حتى عصر المؤلف المجلدين السادس والسابع ؛ ويختتم ابن خلدون مؤلفه بالتعريف عن نفسه في عدة فصول كبيرة كما نفصل بعد .

ويبدأ ابن خلدون كمعظم المؤرخين المسلمين بالحديث عن أصل الخليقة وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه في ذلك معاد جله من الروايات والأساطير الدينية القديمة التي رددتها التواريخ الإسلامية نقلاً عن التوراة وعن هرودوس (هرشيوش) بيد أنه يبدي ريبه في صحة الكثير منها . ويشرح لنا ابن خلدون بعد ذلك برنامج تاريخه كاملاً [1] ، ويبدأ بالكلام عن العرب الجاهلية .

---

(١) كتاب العبر ج ٢ ص ١٦ و ١٧ .

ثم اليهود واليونان والرومان والفرس . ويقفو معظم روايته عن اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة النبي وعصر الخلفاء الراشدين جزءاً خاصاً ألحقه بالمجلد الثاني . ثم يبدأ تاريخ الدول الإسلامية منذ المجلد الثالث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ، ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتين مجلد الثالث . ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى مبدأ دولة بني الأحمر ، وتاريخ بني بويه وبني سبكتكين . ويشمل المجلد الخامس تاريخ الترك السلاجقة بإفاضة ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول المماليك في مصر حتى أواخر القرن الثامن . ويعتمد ابن خلدون في هذا القسم أعني تاريخ العرب والدول الإسلامية على تراث أسلافه مثل ابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم . ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار البربر في المجلد السادس . ويذكر لنا ابن خلدون أن كتابة تاريخ البربر هي غرضه الأول من وضع مؤلفه التاريخي . إذ يقول في مقدمته : « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه » (١) . وهذا التصريح من

(١) مقدمة ص ٢٧ .

حسب ابن خلدون قيمة خاصة. فقد حمل بعض النقدة على تاريخه، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق في كتبه عن المشرق. وقد أشرنا فيما تقدم الى أقوال الحافظ ابن حجر وغيره في ذلك (١). والواقع ان القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر، هو — بعد المقدمة — أنفس أقسامه، وأوفرها طرافة، وأقواها عرضا وتحقيقا. وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل المغربية، ما لم يوفق اليه أي مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده. ولا غرو فابن خلدون بطبيعة نشأته وحياته، وتقلبه في خدمة الدول والقصور المغربية، ودرسه لأحوالها دراسة المطلع، رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله.

وفي هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن العرب المستعربة من تابعة الدولة الاسلامية من العرب، بالمغرب، ثم تاريخ البربر والقبائل والبطون البربرية الشهيرة مثل زناتة ومغراوة ولواتة ومصمودة والبرانس وكتامة وصنهاجة منذ أقدم العصور حتى عصره، ويقدم الينا عن أصول البربر وأحوالهم، وعقائدهم قبل الفتح الاسلامي، روايات وحقائق لم تكن معروفة من قبل، ويسرد تاريخ المرابطين والموحدين بإسهاب، ثم يفيض في تاريخ الدول المغربية القريبة من عصره والتي عاصرها بإفاضة ظاهرة؛ ولما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة، وأدى في تقلباتها أدوارا، فإنه يشير في كثير من المواطن الى مواقفه

(١) راجع ص ٩٣ من هذا الكتاب.

وأعماله فيها(١) . ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انتهى الينا . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار الدول المعاصرة ، أن ابن خلدون ، قد راجع ما كتبه في شأنها ورد عليه فيما بعد في كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه في تونس سنة ٧٨٣ ه قبل رحيله الى مصر . وهو يقول في خلال حديثه عن أخبار بني حفص ما يأتي : « كنت قد أنهيت بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من أيدي ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر في منتصف أربع وثمانين الى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، ثم صارت أخبار المغرب تنمى الى [illegible] أوردها »(٢)

وقد وقع ارتجاع توزر سنة ٧٨٣ه(٣) . وفي مصر تناول ابن خلدون تاريخه بالتهذيب والإضافة ، ووصل في روايته في أخبار الدول البربرية الى سني ٧٩٠ و٧٩١ و ٧٩٢ وأحيانا الى سنة ٧٩٦ه(٤) ، ووصل في أخبار الدول المصرية والتركية حتى سني ٧٩٣ و ٧٩٥ و٧٩٦ و٧٩٧ه(٥) . ووصل في أخبار الأندلس حتى سنة ٧٩٤ه(٦) .

(١) مثل [illegible] في ص ٣٠٩ [illegible] من المجلد السادس وفي ص ٣٣ و٤٣ و ٣٠٥ و٣٢٩ و٣٣٤ و ٣٦١ من المجلد السابع

(٢) كتاب العبر ج [illegible] ص ٣٩٠

(٣) كتاب العبر ج [illegible] ص ٣٩٠

(٤) راجع ج ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٢ و ٤٠٤ [illegible] ج ٧ ص ١٤٥ و ١٤٧ و ٢٠٨ و ٢٩٣

(٥) راجع ج ٥ ص ٤٥٠ [illegible] ص ٥٥٠ و ٥٦٣

(٦) راجع ج ٤ ص ١٩٠

وهذه كلها صفحات وفصول جديدة أضيفت الى المؤلف الأصلى أثناء إقامة المؤرخ بمصر، والنسخة التى انتهت الينا، والتى نتداولها الآن، هى بلا ريب من أتم النسخ وأوفاها.

ونلاحظ فى هذا القسم أيضا — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلا خاصا للتكلم عن خلال البربر «وعما كان لهم قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة» وهو يقول لنا بحماسة «وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم فى الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومدعاة المدح والثناء من الخلق، من عز الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات فى الشدائد وإباية الضيم ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصر دينه، فلهم فى ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم»[1] ولم يعقد ابن خلدون مثل هذا الفصل للتحدث عن خلال أية أمة من الأمم الأخرى، فهو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحة، وفى ذلك أيضا ما يفسر نظريته فى الحملة على العرب غزاة افريقية والمتغلبين عليها.

على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خلدون غير تاريخ البربر تمتاز بقيمة خاصة، مثل ذلك روايته عن دولة الإسلام فى صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممالك النصرانية فى اسبانيا،

(١) راجع ج ٦ ص ١٠٣ وما بعدها.

وتاريخ دولة بني الأحمر في غرناطة . وينوه العلامة دوزي بقيمة رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى في إسبانيا ويقول إنه لا يوجد في الآداب الإسبانية في العصور الوسطى ما يستحق أن نقرن بها، وإن مؤرخي النصارى لم يوفقوا لكتابة رواية في مثل وضوحها ودقتها عن أية دولة مسلمة »(١) ويتفوق ابن خلدون في هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين تفوقاً عظيماً من من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية، ويرجع ذلك في الغالب إلى أنه اطلع على مصادر في عصره لم تصل إلينا . وقد عني البحث الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر عناية عظيمة كما عني بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه، فترجمت جميعها إلى اللغات الأوربية كما سنبين بعد .

ويختم ابن خلدون كتابه بعدة فصول كتبها في التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى وفوده إلى مصر، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى منتصف سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه الفصول « بالتعريف » أو التعريف بابن خلدون، وسنعود إليها فيما بعد .

* * *

وقد نهج ابن خلدون في تنظيم مؤلفه منهجاً جديداً ، فقسمه إلى كتب، ثم إلى فصول متصلة متداخلة، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتداخل

(١) Dozy: Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge. 50

بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقاً كبيراً . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الإسلامية قبل عصره في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تعددها وتباينها معاً . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة إلى طريقة الفصول والأبواب المتصلة . وهي أقرب إلى الدقة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدعها من المؤرخين المسلمين ، فقد سبقه إليها منذ القرنين الثالث والرابع مؤرخون كالواقدي ، والبلاذري ، وابن عبد الحكم المصري والمسعودي . فهؤلاء أرخوا فصولاً متصلة (1) . ولكنه يمتاز عن أسلافه بروعة التنظيم والربط والبسط . ثم يمتاز عنهم أيضاً بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

ولابن خلدون أسلوب خاص في العرض والتعبير . وكانت مقدمته تمتاز بطرافة موضوعها فهي أيضاً تمتاز بروعة أسلوبها الأدبي الذي يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتنسيق . وقد كانت المقدمة مثلاً أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، وهي في عصرنا أيضاً مثل أعلى لحسن البيان والفصاحة المرسلة والعرض الشائق . ولكن رغم ما يطرأ أحياناً على أسلوبها من ضعف في العبارة ، وغرابة في التعبير ، وشذوذ في اللفظ ، ترجع إلى نشأة ابن خلدون البربرية ، وشغفه بآداب

(1) الواقدي في كتابه «فتوح مصر والشام» و«فتوح إفريقية» والبلاذري في «فتوح البلدان» وابن عبد الحكم في «فتوح مصر وأخبارها» والمسعودي في «مروج الذهب» .

المغرب والأندلس ، وهي تنكمش وتشتد في أوج قوتها .

ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوي المرسل ؛ وفي أحيان كثيرة يرتفع إلى ذروة الجودة في التعبير ، ولكنه في أحيان كثيرة يبالغ في الإيجاز والإدماج ، فتبدو عبارته قاصرة عن بيان مقاصده ويعتورها الغموض واللبس ، أو يعتورها نوع من الركاكة والضعف ، وتخونها الألفاظ العربية ، عبارته دائماً تساير موضوعه ، وتمتاز دائماً بميول نحو المشرق .

— ٢ —

ترك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين ، فكثير منهم ترجم نفسه ولا سيما المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترجموا أنفسهم ياقوت الحموي في كتابه « معجم الأدباء » ، ولسان الدين بن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، ومعاصره الحافظ ابن حجر في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » ، والسيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » . ولكن هؤلاء جميعاً يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة ، أما ابن خلدون فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتاباً بأسره ، ويتحدث صراحة عن كثير من أعماله وأحواله التي لا يحسن الحديث عنها . وابن خلدون يعتبر بحق بنفسه شخصية من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ، فقد لبث نحو ثلث قرن شخصية بارزة في الدول المغربية المعاصرة ، يؤثر بأعماله ونفوذه في تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه في الواقع قطعة من

تاريخ هذه الدول لايمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذاً ترجمة نفسه فى عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلا لمؤلفه التاريخى . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذى اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل من المجلد السابع من تاريخه نحو مائة صفحة من القطع الكبير(١) . ويحدثنا ابن خلدون فى « التعريف » عن نسبه وتاريخ أسرته منذ قدمت إلى الأندلس واستقرت فى إشبيلية حتى نزوحها إلى المغرب ، وما ساهم به زعماؤها فى حوادث الأندلس ، وما انتهوا إليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أيام الطوائف . ثم يحدث عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ ودرس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلقى عنهم ، ويترجم لكثير منهم ، ثم يتناول سيرة حياته العامة ، منذ ولى توقيع العلامة لأبى اسحاق سلطان تونس سنة ٧٥٢ هـ ، ويحدث بإفاضة عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه فى قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وما انتهى إليه من النفوذ فى هذه القصور والدول وهو فى عنفوان شبابه لم يجاوز الثلاثين ، وما أصابه مرارا من محن الاعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته إلى الأندلس واتصاله بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتالة وزيارته لإشبيلية موطن أسرته الأول ، وكيف نشب الجفاء بينه وبين ابن الخطيب وملك غرناطة . فارتد إلى المغرب يتقلب فى خدمة أمرائه ودوله حتى انتهى كرة أخرى إلى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٧٩ — ٤٦٢ .

العزلة حين وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه . ورأى أخير أن يختم حياة المغامرة السياسية فى تلك العصور المضطربة فعاد من تونس الى مصر سنة ٧٨٤ هـ .

ويتحدث ابن خلدون بعد ذلك عن حياته فى مصر واتصاله بالسلطان، وولايته التدريس وقضاء المالكية، وما كان من سعاية خصومه فى حقه حتى عزل عن منصب القضاء، ثم سفره لقضاء الحج وعوده الى مصر لينقطع للتدريس والقراءة ، وليرتد حينا الى حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

وهنا يختتم ابن خلدون فصول « التعريف » نفسه فى النسخة المتداولة التى انتهت الينا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ بنسخة مستقلة من « التعريف » ثم وقف عنوانها "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" وفى نهايتها أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصلية (١) . وفى هذه النسخة عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر ، يحدثنا فيها بإفاضة عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب، وعن حوادث مصر الداخلية يومئذ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق ، وما دار بينهما من الأحاديث ، وما وقع فى تلك الفترة من حوادث الفتح التترى ، يتخلل ذلك كله شروح وتعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ثم يحدثنا بعد ذلك عن عوده

(١) تحتفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم (١٠٩ م تاريخ) .

الى مصر وعوده الى ولاية القضاء مرارا وتكرارا ، وما لقى في ذلك من كيد خصومه وسعاياتهم . ويصل ابن خلدون في رواية هذه الحوادث حتى ختام سنة ٨٠٧ هـ أعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط . وتشغل هذه الفصول في النسخة الخطية المشار اليها نحو أربعين صفحة كبيرة (١) . وتقع النسخة كلها في مائة وتسع وأربعين صفحة ، وفي القسم الأول منها الذي يمثل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة مما يدل على أن ابن خلدون عاد أثناء مقامه في مصر فتناول ترجمة حياته بشيء من التنقيح والتهذيب .

وهذا «التعريف» الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته ، قطعة فريدة في الأدب العربي ، فهو صورة قوية ممتعة تبث الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت في كثير من الحرية والصراحة حتى انها لتفصح في كثير من المواطن عن خواص صاحبها النفسية ، وليست هذه الخواص دائما مما يحمد أو مما تقره الأخلاق الصحيحة . فهنالك الكبرياء ، والزهو ، والأثرة ؛ وهنالك الطمع وحب التقلب ، وشغف الدس ، وتنهز الفرص بأي الوسائل ؛ ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة ، هذه كلها نلمحها من آن الى آخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يفصح عنها بنفسه . ولكن

(١) تشغل هذه الفصول في النسخة الخطية من ص ١٠١ الى ص ١٤٩ .
وهي [illegible] ابن خلدون [illegible] ولاية [illegible] [illegible]
[illegible] في [illegible] بين ملوك المغرب والملك
الظاهر ملك مصر [illegible] من بلاده [illegible] الأمير تيمور
(التتر) سلطان [illegible] .

هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيراً عن خواص الشخصية الممتازة، بل هي في الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هي بعبارة أخرى مقومات السياسة «المكيافيلية» التي تتبوأ مكانتها بين مذاهب السياسة الحديثة. ثم هي تقترن في الوقت نفسه بكثير من خواص العبقرية وميزاتها. فهنالك إلى جانبها نرى الجرأة والإقدام وقوة النفس والثبات والجلد، ونرى قوة الذكاء والدهاء وبعد النظر، ونرى قوة التأثير والإقناع، ونرى الفصاحة والبيان الساحر. هذه الخلال البديعة كلها أيضاً نستشف ونشهد في أعمال ابن خلدون ومواقفه. وفي هذه وتلك تبدو شخصية المؤرخ صريحة جريئة وبسيطة تحمل على الإعجاب.

ثم هنالك الجانب القصصي الشائق. وتلك الحياة الخطرة التي تحف حياة المؤرخ، ليست مما يقع في حياة الرجل العادي. فهو يجوز من قصر إلى قصر، ويجوز مخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة، ويقضي حياته السياسية في بحث مستمر، ويسير في ركب الجند ويمشي إلى جانب أميره في معاركه الحربية، ويقوم بقضاء مهامه الخطرة في عمق الهضاب والصحاري. ونراه في دمشق في السبعين من عمره يخوض مخاطر جديدة، وينزل من أسوار المدينة المحصورة خفية ويقصد إلى معسكر التتر في جرأة، ونراه في مصر يقارع خصومه ويغلبهم رغم انفراده وكثرتهم، ويفوز عليهم في ميدان النضال أكثر من مرة. أليست لهذه الحياة العجيبة الشائقة روعتها وسحرها؟ إذن لنذكر حين نقرأ «تعريف

ابن خلدون» تلك الترجمة الشهيرة التي تركها لنا سفونوتو تشليني[١] عن حياته الغريبة. فهنالك شبه عظيم بين السيرتين رغم اختلافهما في النوع، وكلتاهما تفيض بمواطن جرأة ومخاطرة ومواطن للإفضاء والصراحة. وقد كانت ترجمة تشليني تعتبر في الأدب الغربي، نموذجا بديعا للترجمة الشخصية، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق، وإن «تعريف» ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة في أدبنا العربي.

— ٣ —

لم يصلنا من تراث ابن خلدون سوى مؤلفه التاريخي أعني كتاب العبر والتعريف. ولكن ابن الخطيب يذكر لنا في ترجمته لابن خلدون في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» ثبتا آخر لآثار ابن خلدون، فيقول لنا إنه «شرح البردة شرحا بديعا، ولخص كثيرا من كتب ابن رشد، وعلق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييدا مفيدا في المنطق، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازي. وألف كتابا في الحساب، وشرع في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال»[٢] وقد كتب ابن الخطيب هذه الترجمة قبل أن يضع ابن خلدون مؤلفه التاريخي بأعوام كثيرة،

---

(١) سفونوتو تشليني Cellini (١٥٠٠ — ١٥٧١) رسام ومصور وصانع إيطالي شهير خاض حياة غريبة فياضة بالجرأة والمغامرة، وكتب ترجمة نفسه في مجلد ضخم، وتعتبر ترجمته من أبدع آثار عصر الإحياء.

(٢) نفح الطيب (بولاق) ص ٤١٩ — وينقل المقري ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون كلها (ج ٤ : ٤١٤ — ٤٢٦).

ولذا لم يذكره في هذا الثبت . على أن شيئاً من تلك الآثار أو الرسائل لم يصلنا ، بل يظهر أنها لم تكن ذائعة معروفة فلم تذكر التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئاً ، ويظهر أيضاً أنها لم تكن من الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لا يشير إليها في التعريف بشيء .

# الفصل الرابع

## ابن خلدون والنقد الحديث

[illegible]

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة. وقد عرف التفكير العربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته، وعرف قبله كثيرا من المؤرخين المسلمين، لا لأنهم أجدر بالبحث والتعريف، ولكن لأنهم ظهروا في عصور الاسلام الزاهرة، ولأنهم تناولوا نواحي عدة (1) للتفكير العربي. ولكن ابن خلدون ظهر في عصر

(1) عرف العرب مؤرخين مثل المسعودي [illegible] وابن [illegible] [illegible] وابن عربشاه قبل ابن خلدون [illegible] بعض مؤرخيهم [illegible] الاجنبية [illegible] في [illegible] [illegible] عشر.

سرى فيه الانحلال إلى صولة الإسلام وسيادته، وضعف التفكير الإسلامى، فلم يكن أجدر العصور بالتعريف والبحث. ولبث تراث ابن خلدون مغمورا فى المشرق والمغرب مدى قرون، يكاد المشرق يجهله، ولا يعرف الغرب شيئا عنه. وفى سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه فى موسوعة «دربلو» الشرقية أول ترجمة غربية (١). وهى ترجمة موجزة ناقصة بحتة. ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعنى التفكير الغربى بشأنه، حتى نشر المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة فى قاموسه [illegible] ثم نشر بعد ذلك بأعوام ترجمة لمقتطفات أخرى من المقدمة، وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة أوفى لابن خلدون فى قاموس التراجم العام Universelle [illegible] مع وصف مسهب لمقدمة ابن خلدون. وفى نفس الوقت نشر المستشرق النمسوى فون همر رسالة بالألمانية عن «اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة» (٢)، عرض فيها بعض نظريات ابن خلدون فى انحلال الدول، ووصفه بأنه «مونتسكيو العرب». ونشر بعد ذلك ترجمة ألمانية لبعض مقتطفات من المقدمة، ثم نشر وصفا لبعض أجزاء المقدمة فى «المجلة الأسيوية» (٣). واستمر دى ساسى

(١) D'Herbelot: Bibliothèque Orientale.

(٢) Von Hammer-Purgstall: Über den Verfall des Islams nach den ersten drei Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

(٣) Journal Asiatique (1822).

وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون أو تاريخه. والبحث الغربي في بين ذلك يزداد اهتماما بابن خلدون وتراثه، وإعجابا بقوة تفكيره وطرافته، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨، ونشر دي سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة، وعندئذ ظهر ابن خلدون للمفكر الغربي في روعة ابتكاره، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصور.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة. كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافا عجيبا حقا، وكان أعجب ما في هذا الاكتشاف أن يعثر الغرب في تراث المفكر المسلم، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة. أجل اكتشف النقد الغربي لدهشته وإعجابه في تراث ابن خلدون كثيرا مما ردده مكيافيلي بعده بقرن، وما ردده فيكو ومونتسكيو وآدم سميث، وأوجست كونت (١) بعده بقرون. وكان المعتقد أن البحث الغربي أول من اهتدى إلى فلسفة التاريخ، ومبادئ الاجتماع، وأصول الاقتصاد

---

(١) مكيافيلي مؤرخ وسياسي إيطالي (١٤٦٩ — ١٥٢٧). وفيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعي فرنسي (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وآدم سميث اقتصادي انكليزي (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وأوجست كونت فيلسوف فرنسي وهو واضع أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ - ١٨٥٧).

السياسي . وإذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيرا من مباحثها ونظرياتها بقوة وروعة . ومن ثم فإنا نرى النقد الغربي، منذ أن كشفه ودرسه، يرتفع بتراثه إلى أسمى مكانة، ويضعه في صف الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي . بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين .

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون أول ما عني النقد الغربي بدرسه، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع، وأخذت تتفوق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغا كبيرا في النقد المعاصر، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوي الكبير البارون فون كريمر، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة «ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية»(١) وقدمها لأكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخا للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الإسلامية، لأنه

(١) Von Kremer: Ibn Chaldun und seine Kultur-Geschichte der islamischen Reiche.

من بين المؤرخين المسلمين أول من خصص فصولا ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم، وخطط العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها في الدول الإسلامية، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب المعاش، ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها في العالم الإسلامي وهو تعبير صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها وإنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه. ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران.

ولم يلق هذا الوصف الذي أسبغه فون كريمر على ابن خلدون تأييدا كبيرا من النقدة. ويقول الأستاذ شميت وهو أحدث من درس ابن خلدون ونقده، في التعليق على هذا الرأي ما يأتي:

« إذا وجب مع بعض التحفظ أن نسمي ابن خلدون مؤرخ الحضارة، فيجب أن نتذكر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقي سواء في هذا القسم من مؤلفه أو في تاريخه السياسي هو أن يقدم لنا أمثلة صحيحة ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره، لا أن يقدم لنا تطبيقا كاملا للقواعد التي قررها. ذلك أنه في الفصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التي يحتج بها بعضهم، بمعنى الإيضاح، كأصول النقد التاريخي والقواعد الأساسية التي يجب أن يستند إليها البحث التاريخي، ويعالج بالأخص فكرته في فهم التاريخ ومداها وعوامله ونتائجه المهمة وقوانينه. ولقد

كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة فى فهم التاريخ بأنه سجل لتطور الإنسان الاجتماعى ، مترتب على العوامل الطبيعية وناشئا عن تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه « مفتتح عهد جديد » لو لم تكن الحضارة التى وصفها صائرة فى الانحلال العاجل ، واللغة التى كتب بها مجهولة من الأمم الفتية التى قدر لها أن تمضى بالمهمة ، بحيث غدا استمرار التقدم العلمى مستحيلا وحتم على سادة الحضارة الجدد أن يسموا بطرقهم ببطء دون المعاونة التى كان بوسعه أن يقدمها ، إلى بعض المراتب السامية التى تبوأها هو من قبل ، (١)

٣ ويعتبر دى بور (هولندى) ابن خلدون فيلسوفا ، ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين من حيث ابن سينا والغزالى وابن رشد ومن إليهم ، وينوه بقيمته الخاصة فى صوغ عبقريته ، ويصفه بأنه مفكر مرن ، فهو يبلغ ثمرة تفكيره ، والعرض فيه شق [?] ، وكثيرا ما يعارض مبادئ الفلسفة العقلية ، ومبادئ الإسلام البسيطة سواء عن عقد شخصى أو اعتبار سياسى . ويجد أن ابن خلدون يؤثر فى آرائه العلمية تقديره [?] لنزعات الأرسطوطاليسية الأفلاطونية . وقد أثرت فى تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية الإسلامية المشرقة ولاسيما المسعودى ، أيما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس علما فلسفيا جديدا ليحل محل منطق أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ علما فلسفيا ، وهو

(١) N. Schmidt: Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New-York 1930) p. 15-16.

يقول إن موضوع العلم إنما هو الحياة الاجتماعية، ووحدة المجتمع كلها وثقافته الفكرية. ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون أقواتهم، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضا، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء، وكيف ينمون أخيرا في ظل حياة الحضر رغبة أدبية في الفنون والعلوم الرفيعة، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة إلى الترف الناعم وتزدهر، ثم تضمحل وتموت. ثم يقول دى بور إن ابن خلدون هو بلا ريب أول من حاول أن يشرح بوضوح تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم ووسائل الإنتاج وما إليها، وأثرها في تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع. وهو يرى في سير الحضارة تناسقا داخليا مطردا. ويختم دى بور حديثه عن ابن خلدون بما يأتي: «لقد سار أمل ابن خلدون في أن يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق، ولكن في غير الإسلام، فكما أنه كان دون سلف، فكذلك بقي دون خلف»(1).

— ٢ —

بيد أن النقد العربي كان أكثر اهتماما بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية. وقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير، وعني كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات أقطاب الاجتماع المحدثين.

(1) T. J. de Boer - Geschichte der Philosophie im Islam (1901). pp. 177-184.

ومن هؤلاء لنقده العلامه الإجتماعي لدفيج جمبلوفتش، فهو يخصص لابن خلدون و مباحثه الاجتماعية فصلا كبيرا، و يصفه بأنه إجتماعي أو من علماء الاجتماع، و يتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل و المقارنة، ويبين أنه قد سبق في كثير من هذه الآراء أقطاب الإجتماع المحدثين. فهو مثلا قد اهتدى إلى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكار لورنس في أواخر القرن التاسع عشر. ويقول جمبلوفتش إن ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الإجتماعي حين يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الإجتماعية. وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هي ثمرة الوسط، وآراؤه في هذا المقام عن الأجناس الغالبة في منتهى الأهمية. وفي أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف «قانون التشبه بالوسط» قبل أن يعرفه داروين [1] بخمسة قرون، وفي بقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان في الخضوع للنواميس الإجتماعية العامة ما يدل على أنه عرف مبدأ «وحدة المادة» قبل أن يعرفه هيكس [2]، ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح بها ابن خلدون ويحددها للفاتحين الظافرين لكى يؤيدوا سلطانهم، مع النظم الحربية التي أثبت البحث التاريخي الحديث أن مؤسسي الدول الأوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها، من ان

(١) داروين Darwin علامة طبيعي انجليزي اشتهر بمباحثه عن أصول الأنساب والأنواع، ومؤثرات الوسط (١٨٠٩ — ١٨٨٢).

(٢) إرنست هيكس علامة بيولوجي وطبيعي ألماني اشتهر مثل داروين بمباحثه عن أصول الأنواع وله فيها نظريات جديدة (١٨٣٤ - ١٩١٩).

فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي أسداها مكيافيلي بعد ذلك بقرن الى الحكام في كتابه «الأمير». وحتى في هذه الطريقة الخاصة لبحث المسائل وفي صبغتها الواقعية الخشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي الشهير الذي يعرفه بلا ريب. هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية، كما يقرر أيضاً أصل القانون السياسي والقانون الكنسي.

وأخيراً يقول جمبلوفتش: «لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت، بل قبل فيكو الذي أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع» (١).

وفي نفس الوقت الذي نشر فيه جمبلوفتش هذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون الباحث الاجتماعي الايطالي فريرو فأيد وصف جمبلوفتش لابن خلدون بأنه «اجتماعي»، ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان (٢)، ونوه بتفوقه في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليفين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً اجتماعياً.

ودرس مسيو مونييه [illegible] بكلية الحقوق ابن خلدون

(١) L. Gumplowicz: Un Sociologue arabe au XIVe siècle (dans Aperçus Sociologiques) pp. 201-226.

(٢) A. Ferrero: Un Sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale) 1896.

من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحث قويم ، ويستدل في أول آراء ابن خلدون الاقتصادية وفي ثنايا آرائه الاجتماعية ، ويصدر فلسفته وقصده بالاجتماعيات . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « هي مزيج عجيب من الخواطر المكتوبة ، وموسوعة لعلوم العصر ، وتحتوي على آراء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع . وطريقته في البحث تدل على ذهن علمي حق . وإذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى ، فهي مع ذلك تقوم على ملاحظة تحليلية للحوادث ، وهي مرآة الوقائع . وليست فلسفته سوى شرح وتحليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفها يسبق بها عصره » . ثم يحلل موضوعاته بعض نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها إلى قسمين هما : نحو بين العصبية للحياة الاجتماعية ، ونظرية تطور الاجتماعية ، ويلخصها بقوله : « وفي فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يشاهد على ما يظهر مبدأ الجبرية التشاؤمية ، فالمجتمع ليس إلا لحظة في مجرى الأشياء الكوني ، وهو يفنى كما يفنى كل شيء ، والخلود كاذب ، وكل نمو يعقبه تفككه ، وكل ارتقاء يعقبه سقوط . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وإنما يشاهد ، وهو بذلك يدل على ذهنية علمية حقة ، ولذا يجب أن يفسح له مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »(٢) .

(١) [illegible] onomiques d'un philo- [illegible] nique et sociale, 1912).

(٢) [illegible] phe [illegible] 1917 [illegible]

ويتوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته .

ويقول لنا فون كريمر إن ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود بعيدة، ويقارنه في ذلك بأبي العلاء المعري . ويعتقد أن مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الإسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون، وما بثت الى نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيرا من الناحية الواقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة. ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة في أخلاقه، ولكنه صبغة لتفكيره فقط، ونتيجة للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه، فكان كما تدل حوادث حياته أكثر ميلا الى الثقة والابتهاج والتفاؤل .

ويدرس الكاتب الألماني فون فيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها، ويرى فيه ذهنا وافر الابتكار، ومثلا أعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير الإسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخا للحضارة [illegible] ، ويرى فيه بحق إماما لمدرستي مكيافيللي وفيكو ، ويحاول أن يطبق نظريته في سقوط الدول والأسر على الامبراطورية الألمانية والدول الأوربية فيقول: «وقد يلوح للألماني في وقت حاضر أن هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر حي، فإن الامبراطورية الألمانية لم تعمر طويلا ثم ذوى غصنها بعد أن عاث الأعداء بمزرعة محرقة . فهل يجب أن نبحث لتلك المأساة عن أسباب غير تلك التي أوردها الكاتب

العربي عن سقوط المرابطين والموحدين » ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يعطف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيدا في المشرق ، لم يفهمه خلف ولم ينسج على منواله سلف ، ويطبق ما كان يشعر به أو يدعو اليه على أوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتبدو ميول المفكر والسياسي لإدراك في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دون ان يردد صداه في عالم أفكار عصره .

— ٣ —

درس الأستاذ استفانو كولوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هي الناحية الإقتصادية . ويرى كلوزيو بادئ بدء « ان ابن خلدون من حيث الحس لدى احد رجاله ، والاسد لدى ولد ذيبه ، والحضارة التي يسعى اليها ، يمكن أن يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد كشف ابن خلدون قواعد جديدة في ميدان العلوم الإجتماعية . ولكنه لا يجارى ميكيافيلي كمؤرخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يطبق المبادئ التي عرضها في مقدمته ليشرح أسباب الحوادث في مختلف تاريخه . ومع ذلك فقد سبق ميكيافيلي وموسكيه وفيكو ، في وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة يؤديها أماري المستشرق والمؤرخ الإيطالي الكبير نفسه كلوزيو فوصف ابن

---

Von Wesendonk : Ibn Khaldun, Ein arab[illegible] ( ) Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts (Deutsche Rundschau, Januar 1923).

خلدون بأنه أول كاتب فى العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » .
ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون فى « التطور الاجتماعى » ويرى أنها موجودة فى تلك العبارة التى يستهل بها ابن خلدون حديثه عن أجيال البدو والحضر وهى : « إن اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش » [١] .

على أن كلوزيو يسوق بالأخص نظريات ابن خلدون الاقتصادية ، ويقول بأن المؤرخ العربى العظيم سبق العصور وسعى أن يكتشف مبادئ العلوم الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيدران وماركس وباكونين » [٢]
ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والعوامل الاجتماعية ، وعن طرق الملك وأنواع السكنى ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل بين حر ومأجور ، وكون العمل خير مصدر للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو فى ذلك كله أن ابن خلدون كان اقتصاديا مبتكرا يعرف مبادئ الاقتصاد السياسى ويطبقها بذكاء ، وربما قبل أن عرفها الباحثون الغربيون بعصور طويلة . ويختتم بحثه بما يأتى : « لقد كانت نظريات ابن خلدون

(١) المقدمة ص ١٠١ .

(٢) فيكتور كونسيدران كاتب فرنسى اشتراكى (١٨٠٨ — ١٨٩٣) ، وكارل ماركس الاقتصادى والفيلسوف الألمانى ومؤسس الاشتراكية العلمية ، ومؤلف كتاب رأس المال (١٨١٨ — ١٨٨٣) ، وباكونين الروسى الاقتصادى ومؤسس مذهب اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦) .

عن حياة المجتمع المعقدة نضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، ومن فهمه للدور الذى يؤديه العمل والملكة والأجور نضعه فى مقدمة علماء الإقتصاد المحدثين» (١) .

— ٤ —

ومن أحدث البحوث النقدية فى دراسة ابن خلدون رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ، درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعى (٢) . ويرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلى ، ونقولاوس الدمشقى أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤرخين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جيبون وشلسر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء فى الانتفاع بالمصادر القديمة أو فى الرواية الأصلية ، ولو أن ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسى ، لكان أثر ينبئ عن همة لا تنفد ، وعن روية فى المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدرا نفيسا للرجوع ، بل لكان فى عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل الطبرى والمسعودى والطبرى وابن الأثير ، على أن حق ابن خلدون فى الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته فى روعة

(١) S. C[illegible] Contribution [illegible] (Revue du Monde Musulman, XXVI [illegible]).

(٢) N. Schmidt: Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher.

هؤلاء ، وهنا ينشر بين يدينا ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيق وطبيعته ، وهو بلا ريب صادق حين يقول إن أحداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، وإذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء أعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعرف موضوع التاريخ بهذه الصورة ، وأن يبصر في التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . ولم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية في حياة الإنسان . وإذا كان يجدر بنا أن نتوسع في فهم التاريخ إلى هذا الحد ، وإذا كان للتاريخ علماء فإن التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنه ليس له سلف في عصره ، ومن حقه أن يفخر بهذا المكتشف . وهو بلا ريب أروع مبتكراته وأكثرها طرافة ، وإن كان ذهنه الناقد قد شق طرقاً جديدة في نواحٍ كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط إلى البواعث والأطماع ، وإلى الأغراض والغايات ، وإلى قوة الإرادة ، وقوة الذهن لدى الأفراد ، ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي إليها ، ولكنها تخضع أيضاً للظروف الاجتماعية العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكييفها ، وانتهى إلى

أنها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ أيضاً أن هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقليم، والماء، والأرض، والموقع، والغذاء . وإذن فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي، أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية، ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حساب العوامل الطبيعية، ومن ثم كان اتساع أفق التاريخ، واتساع مهمة المؤرخ، إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الإنساني، وإذن فهو علم الاجتماع . ثم يقول الأستاذ شميت إن ابن خلدون زعيم الفلسفة الاسلامية كما هو فيلسوف مثل أوجست كونت، وتوماس بكل وهربرت سبنسر، وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة [illegible] تحليلا للقصص والصور، وإذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بنظريته، ولعله يذكرها فقط ليحمل قراءه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن .

وأما عن الحياة الاجتماعية، فإن الأستاذ شميت يرى مع معظم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع، ويرى بالأخص مع جمبلوفتش أن الاجتماع وجد قبل أوجست كونت بعصور طويلة، وأن ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت، وأنه فيما عالج من خواص العادة والإقليم، والأرض،

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ انكليزي، وهو مؤلف تاريخ [illegible] حضارة انكلترا ( ١٨٢١ — ١٨٦٢ ) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور ( ١٨٢٠ — ١٩٠٣ ) وجمبلوفتش فيلسوف [illegible] من فلاسفة [illegible] والأجناس ( ١١٠ — ١٣١ ) .

وبعده، قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم .

وينقل الأستاذ شميت إلينا هذه الكلمة عن العلامة الإسبانى التاميرا : « كفى أنه فى القرن الرابع عشر، حينما كانت دراسة التاريخ لأوربية فى منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها، قد كتب كتاب كالمقدمة، درست فيه وعرضت كل المسائل التى غدت فيما بعد، أهم مهام المؤرخين المحدثين » .

* * *

ويكفى ما قدمنا من آراء النقد الغربى فى تراث ابن خلدون وتفكيره، ومما تقدم نرى أن النقد الغربى يرتفع بتراث ابن خلدون إلى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب، ويضع تفكيره بين أرفع وأنفس ثمرات التفكير البشرى .

(١) راجع رسالة الأستاذ شميت ص ١٠ و ١٩ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٧ ، ٢٩

# الفصل الخامس

## ابن خلدون ومكيافيلي

أوجه الشبه بين مكيافيلي وابن خلدون — [illegible] الاجتماعية كما تعرض في كتاب الأمير — [illegible] — [illegible] ابن خلدون ومكيافيلي [illegible]

— ١ —

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن، وضع نيكولو مكيافيلي المؤرخ والسياسي الإيطالي (١) كتاباً يتبوأ في التفكير الغربي مكانة كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الإسلامي، وذلك هو كتاب «الأمير» (Il principe)، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسي، ولا جدال في تمتعه بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق، وقد لاحظت بين الأثرين كثيراً من أوجه الشبه

(١) نيكولو مكيافيلي (Nicolo Machiavelli) كاتب ومؤرخ وسياسي إيطالي كبير، ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فلورنس (فيرنسا) وتوفي بها سنة ١٥٢٧، واشتغل حيناً سكرتيراً للجمهورية [illegible] في حكومة فيرنزا وكلف بعدة مهام سياسية في إيطاليا [illegible] ولما عاد آل مديتشي للحكم في سنة ١٥١٢ [illegible] عليه تهمة

المادى، وأن بينهما كثيراً من أوجه الشبه المعنوى، وبين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التى تكونت كل فيها، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيراً من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظيمين الى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التى عاش كل منهما فيها . فقد كانت الإمارات والجمهوريات الإيطالية التى عاش مكيافيلى فى ظلها تعرض فى إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التى تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها، وطموح كل منها الى افتتاح الأخرى، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكيافيلى بهذه الدول، وقضى عصراً فى خدمة إحداها وهى وطنه فيرنتزا (فلورنس) وندب منها لمهام سياسية مختلفة . واستطاع أن يدرس عن كثب كثيراً من الحوادث والتطورات السياسية التى تعاقبت فى عصره، وأن يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التى عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته .

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع أفقاً من المفكر

[illegible]
[illegible]
[illegible]

الإيطالي . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله ميداناً يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يفهمها على ضوء التاريخ ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكيافيلي يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعاً معينة من الدول هي التي يعرضها التاريخ اليوناني والروماني القديم ، وتاريخ إيطاليا في عصره ، ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذي يحكم الدولة ، وما يتحقق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض له من وسائل الحكم . وهذه الدراسة محدودة المدى تكون جزءاً صغيراً فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، وهو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذي يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكيافيلي تفوقاً عظيماً ، ويبدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية ، وإن كان مكيافيلي من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون في سلامة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الأسلوب .

كتب مكيافيلي كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ وأهداه إلى لورنزو دي مديتشي « الفخم » أمير فلورنسا ، وهو يشير إلى غرضه من وضع كتابه في قوله للأمير في خطاب الإهداء : « ومع أني أعتبر هذا المؤلف غير حقيق بمقابلة سموك ، فإني أعتمد كل الاعتماد على عطفك ورقتك في قبوله ، إذ لست أستطيع أن أهديك خيراً من أن أقدم إليك فرصة لتفهم في أقصر الأوقات كل ما عرفته

خلال أعوام طويلة، وفي غمار من المتاعب والأخطار» وفي قوله: «فتقبل يا ذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح التي أرسلها بها، وإنك إذا قرأتها بتمعن وتأمل، فسوف تعرف حرص رغبتي في أن تصل إلى هذه العظمة التي يمنيك بها حسن الطالع وتمنيك بها صفاتك»(١). ومن ثم فقد أراد مكيافيلي أن يقدم بكتابه «الأمير» مرشداً للأمراء في عصره يرشدهم إلى أمثل طرق الحكم، وأمثل الوسائل المفيدة للشعوب التي يحكمونها. ومكيافيلي يستمد آراءه وتجاربه من حوادث التاريخ القديم، وبالأخص من حوادث عصره التي شهدها وخبرها، ويرتب عليها أحكاما وقواعد عامة كما يرتب على حدوث مثل هذه الأحكام، ويعتمد على دراسته للمجتمع.

ويبسط مكيافيلي دراسته في بحوث موجزة. ويبدأ بالحديث عن أنواع الإمارات، ووسائل كسبها. وعن الوسائل التي تحكم بها المدن والإمارات التي كانت تعيش في ظل قوانينها قبل أن تغلب، وعن الإمارات التي تقوم بالفتح وبكفايات الأمير الشخصية، وعن تلك التي تقوم على يد الغير أو بطريق الحظ، وتلك التي تقوم بالغدر والخيانة، وعن الإمارات المدنية والدينية، وعن أنواع الجيوش والجنود المرتزقة، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن الحرب. ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمير وما يحمد فيه من خلال وما يذم، وعن الكرم والشح، والرأفة والقسوة، وعن الطريقة التي يجب أن يحفظ بها الأمراء وعودهم، وعما يجب عليهم أن يجتنبوه من بغض الشعب واحتقاره، وما يجب عليهم لاكتساب

(١) كتاب الأمير [illegible] الترجمة العربية ص ٢ و ٣

الشهرة والمجد، وأخيراً يتحدث عن خلق الأمير لملكه، وعن وجوب تحصين ملكه، وعن الأسباب التي تفقد الأمراء ملك دولهم، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشئون البشرية، ثم يختتم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم.

تلك هي المباحث التي يعالجها مكيافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير، ويبدو بالأخص مما كتبه عن «الأمير» أنه يعالج موضوعاً عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة، هو موضوع السياسة الملكية. وهو موضوع تناوله منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الإسلامي الباحثون في علم خاص، هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق. وقد رأينا أن «السياسة» كانت تفهم عند العرب في عصورها الأولى بمعنى ضيق جداً هو شرح الخلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الأمير، والعيوب التي يجب أن يترفع عنها، صوناً لرياسة الدولة وسلامة الملك، ولكي يسبغ على السلطة هيبتها وكرامتها. ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى «السياسة» وفسروها في عدة أبواب، وتناولوا «السياسة الملكية» من الناحية العملية، كذلك من الناحية الإدارية، وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية، وتحدثوا عن الخطط السلطانية. والظاهر أن ما يتناوله مكيافيللي بالأخص من خواص الأمير وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري، ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار»، وما ردده في كتاب «الأحكام

السلطانية» و طرطوشى فى كتاب «سراج الملوك» والغزالى فى كتاب «التبر المسبوك» ثم ابن الطقطقى فى كتاب «الآداب السلطانية». وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناول من أحوال الدول العامة والملك ، إذ تحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والإمامة ، وعن مختلف المذاهب والآراء فى حكم الإمامة ثم عن الخطط السلطانية [١] . وحديثه فى ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الإجتماعية التى لم يوفق اليها باحث قبله .

على أن مكيافيلى يمتاز فى بحثه بروح عملية حرة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الأمير أو عن الملك كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، اذا بالمفكر الايطالى ينظر الى الأمير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل ، دون تأثر بما إذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلى كما فهمتها الأجيال والعصور . ومن هنا تستمد فلسفة مكيافيلى لونها العملى ، وتوصف آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخشونة التى جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال لسياسة الغدر التى لا ضمير لها ولا ورع ، والتى جردت من كل نزاهة وعفة ، وتخلصت عن كل المثل الانسانية والأخلاقية . والى القارئ بعض نماذج من تلك الآراء التى طبعت فلسفة مكيافيلى ، وأميره الأمثل

(١) راجع المقدمة : ص ١٥٦ و ١٥٨ الى نهاية الباب .

بذلك الطابع الأسود :

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التي لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة ، ذلك بأنه إذا بحث كل شيء بعناية ، ألفينا أن شيئاً يبدو كالفضيلة ، إذا اتبع ، فإنه يؤدي إلى خرابه ( أي الأمير ) وألفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة ، إذا اتبع فإنه مع ذلك يؤدي الى سلامته ورخائه » .

٢ — « ليس أكثر تبديداً للمال من الجود والبذخ ، إذ سرعان ما تعجز عن المضي فيهما ، وتغدو إما فقيراً أو محتقراً ، أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر ، جشعاً مكروهاً . ويجب على الأمير أن يحرص قبل كل شيء على ألا يكون محتقراً أو مكروهاً . وإذا خير أن يشتهر بالأمر بالوضاعة التي تثير اللوم دون مقت ، من أن يرغم الانسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، على أن يوصم بالجشع مما يثير اللوم والمقت .

٣ — كان شيزري بورجيا يعتبر قاسياً ، ومع ذلك فإن قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحدتها وردت اليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفيرنسي الذي أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة ، فترك « بستويا » حتى خربت ، وإذا ما دام الأمير قادراً على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه أن يهتم بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون في استعمال الرحمة ، فتثور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب .

٤ — وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يحب الإنسان من أن يرهب أو يرهب من أن يحب ؟ ويمكن أن يجاب بأنه من المرغوب أن يكون الإنسان محبوبا مرهوبا ، ولكن ما دام اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن ، فإنه لخير وأكثر سلامة أن يرهب الإنسان من أن يحب ، إذا وجب أن يتصف بإحدى الصفتين » .

٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن يحفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود » .

٦ — « وإذا فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها . ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد أن يراعي كل الأمور التي يقدر الناس من أجلها ، لأنه كثيرا ما يرغم لكي يحفظ دولته على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين . ولذا فمن الضروري أن يكون عقله متأهبا للعمل طبقا لتقلب الريح والحظ » .

٧ — وقال مشيرا إلى سياسة ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه يتخذ الدين دائما عذرا لتنفيذ أعمال عظيمة ، وقد ثار بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم . وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه » (١) .

(١) راجع ترجمة لكتاب الأمير The Prince ص ١٢٣ و ١٣٠ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٠١ ( عمله نشرتها ) .

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيلية في تصوير الدولة والأمير، وهي فلسفة تقوم على الحقائق العملية. وتحتل هذه الحقائق في زعم جدتها وروعتها مكان الأول في بناء الدولة وفي سياسة الأمير. فالحقد، والشح والوضاعة، والقسوة والإرهاب، والغدر والنكث بالعهد، وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة والدين، وما إليها مما ينافي المثل العليا ومبادئ الأخلاق والإنسانية، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيلية، ولا مما يشين السياسة التي تقوم عليها. ومن ثم كان الأمير والسياسي الأمثل في نظر مكيافللي طغاة الحكم في تأييد سلطانهم أن يروع الناس وأشباههم مثل البابا إسكندر السادس، وولده شيزاري بورجيا دوق فالنتينو (١). ويبدو مكيافيلي طوال حياته شيزاري بورجيا بأمثل عزمه واعتد به في رسالة خاصة، ويبدي إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التي اتبعها ودبرها شيزاري للبطش بخصومه من الأمراء، وتعدد وقتلهم غدرا وغيلة. ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذي ما زال يدمغ السياسة المكيافيلية الى عصرنا. بيد أنه من الحق أن نقول إن المفكر الإيطالي يبدي في صوغ فلسفته كثيرا من القوة والبراعة وبعد النظر، وأن معظم النظريات والمبادئ التي قد يحكم عليها من الوجهة النظرية حسنة،

(١) هو البابا إسكندر السادس أو رودريجو بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ إلى وفاته سنة ١٥٠٣، وابنه شيزاري دوق رومانيا ودوق فالنتينو والولايات الأخرى، وقد ولد سنة ١٤٧٦ وتوفي سنة ١٥٠٧ بعد حياة حافلة بالحوادث العاصفة والشهوات والجرائم والغدر والقسوة الرائعة.

كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الدولية، وما تزال الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية .

— ٢ —

يتناول ابن خلدون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، ويتفوق على مكيافيللي تفوقاً عظيماً في معالجته من الناحية الاجتماعية . ويتفق المفكران العظيمان في مواطن كثيرة . مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العسفية في نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتصرفه وتوسطه فيها، وعن هيبة الدولة وعصبيات جندها، وعن منافسة الأمير الرعية في التجارة والكسب، وعن تطلع الأمير الى أموال الناس وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل الى الدولة ومد يد الحكام الى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كتابة (العسكرية والسلطانية) (١) فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكيافيللي أو يقترب منها، سواء في كتابه الأمير أو في كتاب آخر له هو تاريخ فلورنس (Istorie Fiorentine) تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة (٢) . وقد لا يتفق مكيافيللي مع ابن خلدون في الرأي أو في منحى التفكير دائماً، ولكن كثيراً مما يقوله المفكر المسلم يتردد

(١) راجع المقدمة، ص ٧ و ١٥٧ و ١٥١ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٨ و ٢٠٥ و ١٤١ .

(٢) قارن ما كتبه مكيافيللي في موضوعات مماثلة في كتاب «الأمير» ص ٩٨ و ١٠٨ و ١١٨ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٩ و ١٨٣ وغيرها .

صدده فيما يقوله المفكر الإيطالي . فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التي تناولها مكيافيللي بعده بنحو قرن ونصف قرن ، وهو بالأخص صاحب الفضل الأول في فهم الظواهر الاجتماعية ، وفي فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها ، وترتيب القوانين الاجتماعية على هذا الأسلوب العلمي الفائق .

قال العلامة الاجتماعي جمبلوفتش : « إن الفضل السبق يرجع بحق إلى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه الملاحظ التي أبداها مكيافيللي بعد ذلك في الحكام في كتابه «الأمير» . وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل ، وفي صميم الواقعية الخشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب » [1] .

وقال استفانو كلوزيو مقارناً ابن خلدون بمكيافيللي : « إذا كان الفلورنسي العظيم (مكيافيللي) علمنا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر . ولكن العلامة التونسي (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية كاقتصادي وفيلسوف راسخ ، مما يحمل بحق على أن نرى في أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » [2] .

وقد نتساءل أخيراً ، هل وقف المفكر الإيطالي على شيء من تراث ابن خلدون واسترشد به ، أم وقف على شيء من آثار المفكرين

---

(١) Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217).

(٢) Colosio : Introduction à l'Étude d'Ibn Khaldoun (ibid).

المسلمين في موضوع السياسة الملكية ونظمها؟ نعتقد مع العلامة جمبلوفتش أن مكيافيللي لم يعرف حين كتابة «الأمير» شيئاً عن ابن خلدون أو عن آثاره، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من آثار المفكرين المسلمين في موضوعه. صحيح أن بعض نواحي التفكير الإسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل مكيافيللي وفي عصره، وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمي الأندلس وشمال إفريقية وبين مجتمعات الفكرية في إيطاليا، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ إلى اللاتينية. ولكنا لا نجد في آثار مكيافيللي شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أي مفكر مسلم في موضوعه. وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وحوادثه وتفسير حوادثه، وترتيب القوانين الاجتماعية، فذلك يرجع كما قدمنا إلى تقارب عظيم بين المذهبين، وإلى تماثل في العصر والظروف التي عاش فيها كل منهما، وإلى تماثل في الخبرة السياسية التي كسبها كل منهما، بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته. وربما يكون مكيافيللي قد عرف شيئاً عن ابن خلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتابه «الأمير» بنحو عشرة أعوام، أعني حوالي سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤؛ ففي ذلك الحين كان الكاتب الأندلسي المعمر الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي (Leo Africanus) يقيم في رومه ويتجول في شمال إيطاليا. وهو غرناطي ولد حوالي سنة ١٤٩٥ م، ونشأ في فاس وتولى لسلاطينها بعض المهام السياسية، ثم حج إلى مكة سنة ١٥١٢، وبعد تعريجه على قسطنطينية، وفي أثناء ركوبه البحر

إلى المغرب أسرته عصابة من لصوص البحر الصقليين ، وقُدِّم
إلى رومة حيث تنصّر باسم « يوحنا ليو » أو يوحنا الأسد .
وفي رومة انقطع للبحث والتأليف ، ووضع قاموساً عربياً لاتينياً ،
وألّف كتابه الشهير في وصف إفريقية ، وترجمه بعد ذلك إلى
الإيطالية . وكان في مدينة بولونيا شمال إيطاليا على مقربة من
فيرنزه سنة ١٥٢٤ حسبما يقرر في خاتمة قاموسه اللاتيني الذي توجد
منه نسخة خطية في الإسكوريال (١) . ومن الممكن بل لعله من
المرجح أن يكون ليون الأفريقي قد لقي مكيافيلي وعرفه في رومة
باعتباره من أعلام التفكير والكتابة يومئذ . وكان مكيافيلي يعمل
في رومة سنة ١٥٢٥ ، فقصدها برفع كتابه « تاريخ فيرنزه » إلى صديقه
وحميه البابا كلمنصوس السابع ( جوليو دي مديتشي ) . ولو صح
هذا اللقاء والتعرف لكان ثمة مجال للقول بأن مكيافيلي قد وقف
على شيء من آثار التفكير الإسلامي التي لا بد أن يكون ابن الوزان
قد ألمّ بها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين ، ومن المرجح أن
يكون ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل
هذا الحديث ، لا سيما وقد كان صيته ما يزال قوياً ذائعاً في إفريقية
والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهما كان من
شأن هذه الفروض ، فإننا نستطيع أن نقول إن مكيافيلي قد انتفع
في صوغ فلسفته السياسية والاجتماعية بشيء من آثار التفكير

(١) [illegible] Br[illegible] [illegible] H[illegible]
[illegible] .

الإسلامي . ولسنا نلمح في كتابه أثراً لهذا التفكير . ومكيافيللي
ذهن مبتدع مبتكر لا ريب ، كما كان ابن خلدون ذهناً مبتكراً
مبتدعاً ، وقد شق كلا المفكرين العظيمين طريقه لنفسه ، وألهم
وحي عصره . وكان كتاب «الأمير» فتحاً عظيماً في تفكير عصر
الإحياء الأوربي (الرينيسانس) كما كانت مقدمة ابن خلدون
فتحاً عظيماً في التفكير الإسلامي .

# الملحق الاول

## بيان فهرسي عن كتاب العبر

فهرس جامع لآثار ابن خلدون [illegible] المقدمة في باريس ومصر وبيروت وبولاق وطبعات كتاب العبر وطبعة الإسكندرية و[illegible] المتداولة ومخطوطاته [illegible] تراجم من آثار ابن خلدون إلى مختلف اللغات [illegible] وبعض من مخطوطات آثاره .

---

— ١ —

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف القرن الماضي مخفيا بعيدا عن متناول العامة، إلا فقرات ومقتطفات صغيرة من مقدمته وتاريخه نشرت تراجمها من وقت لآخر. وفي ذلك الحين بدأت العناية بنشر آثاره، فنشرت المقدمة، ونشرت قطع مختلفة من تاريخه . وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس سنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نويل دي ڤرجيه مقتطفات من كتاب العبر، تتضمن تاريخ بني الأغلب ودولة الإسلام في صقلية مع ترجمة فرنسية بعنوان Histoire de l'Afrique sous la dynastie des Aghlabites et de la Sicile sous la domination musulmane . وفي سنة ١٨٥٨ ظهرت مقدمة ابن خلدون في باريس في ثلاثة مجلدات، أصدرها المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية، ضمن المجموعة المسماة «مذكرات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك» Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi وهي تشمل ضمن هذه المجموعة المجلدات السادس عشر الى

الثاني عشر . وفي نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة بمصر لأول مرة (سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م) بعناية الشيخ نصر الهوريني عن نسخة مخطوطة أخرى . ينقصها ديباجة فقرة إهداء المؤلف كما ترد بنسخة باريس . ونشرت المقدمة في بيروت سنة ١٨٧٩ . ثم نشرت بعد ذلك مرارا . وطبعت مطبعة بولاق بإخراج أثر ابن خلدون (كتاب العبر) كله، فظهر تاما في سبعة مجلدات كبيرة. وتم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) واعتمد في إخراجه على عدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة (١) ولكنها تكمل بعضها بعضا، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المخطوطة التي نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤ هـ فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار إليها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة في التعريف عن تاريخ النسخة التي تضمنتها وعن قيمتها، ففيها يتقدم المؤلف بإهداء هذه النسخة من كتابه إلى خزانة مولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن بن بني مرين ، ويقول إنه مشهور في حضرتهم لموقفه إطالة العز عنهم غريبين من مدينة فاس حضرة ملكهم . والسلطان عبد العزيز المذكور هو ابن أبي العباس بن أبي سالم بن السلطان أبي الحسن، ولي عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ، وتوفي في صفر سنة ٧٩٩ هـ. وإذا فقد وقع إهداء ابن خلدون كتابه للسلطان عبد العزيز في هذه الفترة ٧٩٦ — ٧٩٩ هـ . وقد انتهى البحث الحديث بأن وقف

(١) يوجد من هذه النسخ نسخة بدار الكتب المصرية، وتوجد أيضا بها مجلدات مخطوطة متفرقة من كتاب العبر . وتحمل هذه النسخ الأرقام الآتية : ١٨٥ م تاريخ، و ٦٥ م تاريخ، و ٦٦ م تاريخ، و ١ ش .

على مجلدين من هذه النسخة التي بعثها ابن خلدون الى فاس لا زالا بمكتبة جامع القرويين ، عثر عليهما الأستاذ ألفرد بل A. Bel وذكرهما ضمن الفهرس الذي وضعه لمكتبة جامع القرويين، وأشار الى أن أحدهما يحمل صيغة الوقف (١). وقد عني الأستاذ ليفي بروفنسال بتحقيق صحة هذا الاكتشاف، ونشر بحثه في المجلة الآسيوية مشفوعا بصورة فوتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المجلدين؛ والمجلدان هما الثالث والخامس (ما يقابل نسخة بولاق تقريبا) . والخامس يحمل صيغة الوقف، وتاريخ هذا الوقف هو ٢١ صفر سنة ٧٩٩ ه . وفي نهاية هذا المجلد إشارة من الناسخ تفيد أنه نقل من الأصل المنسوب لمؤلفه» (٢) . وقد وقع إهداء ابن خلدون لهذه النسخة في نفس الوقت الذي أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر هديته الى سلاطين المغرب كأثر للصلات التي عمل ابن خلدون على عقدها بين بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل ابن خلدون نسخة كتابه هذه الى المغرب مع رسل السلطان الظاهر ، ووفق سلطان عبد العزيز في ذلك الحين . ولكن أنباء وفاته لم تكن قد وصلت بعد الى القاهرة . ومن المحقق أن هذه النسخة المهداة في عهد سيادة ابن خلدون وحياته لأول كانت من أهم نسخ

(١) Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El Quarouiyin à Fez (p. 6).

(٢) [illegible] p. 160-164. وقد نشرت جريدة الأهرام صورة هذه الوثيقة (عددها الصادر ٣ مارس سنة ١٩٣٣ الصفحة [illegible]) وفيها [illegible] بالقاهرة .

الكتاب وأوقده ، إذ كان قد مضى على كتابة ابن خلدون نسخة كتابه الأولى نحو خمس عشرة سنة ، وقد عنى ابن خلدون أثناء مقامه بالقاهرة فى هذه الفترة بتنقيح كتابه وتهذيبه والزيادة فيه ، وشمل التنقيح والزيادة جميع أقسام الكتاب ، ووصل ابن خلدون فى تدوين أخبار الحوادث المعاصرة فى كثير من المواطن الى سنى ٧٩٥ و ٩٦ و ٩٧ هـ حسبما بينا فيما تقدم . ويوجد بدار الكتب (مجموعة مصطفى باشا) نسخة مخطوطة من كتاب العبر فى عشرة مجلدات تنقص عن النسخة الكاملة مجلدا (المجلد السابع من المطبوع)، وتحتوى مقدمتها على صيغة الإهداء المشار اليها (ورقة ٤ من المجلد الأول) مما يدل على أنها قد تكون صورة مطابقة للنسخة الأصلية المهداة فى بلاط فاس .

والخلاصة أن نسخة «كتاب العبر» المتداولة التى أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الخطية المشار اليها ، هى رغم كثرة أغلاطها المطبعية ، من أتم النسخ التى انتهت الينا من آثار ابن خلدون .

— ٢ —

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون فى باريس بعناية العلامة كاترمير سنة ١٨٥٨ ، جاء البارون دى سلان فترجم المقدمة الى الفرنسية ، وهو العمل الذى كان يعتزمه كاترمير وحالت وفاته دون إتمامه . وظهرت ترجمة دى سلان الفرنسية بين سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٨ فى ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (Par M. de Slane Membre de l'Institut)

---

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (٦٥ تاريخ م) .

وتبع دي سلان في ترجمته النص الذي نشره كاترمير، إلا في مواطن قليلة حيث قارن بين مخطوطات مختلفة . وصدر المقدمة بترجمة "للتعريف بابن خلدون" وأكمل ترجمته حتى وفاته بالاعتماد على المصادر المصرية المعاصرة (المقريزي والعيني وابن قاضي شهبة) . ويشكو دي سلان من أسلوب ابن خلدون ويقول إن به ركاكة وغموضاً في أحيان كثيرة، وإنه يستعمل الضمائر بكثرة تحول أحياناً دون فهم مقاصده [1] والواقع أنه يوجد في ترجمة دي سلان غموض كثير، ولكنا نعتقد أن ذلك لا يرجع دائماً إلى غموض النص الأصلي، وإنما يرجع في معظم الأحيان إلى ضعف الترجمة ذاتها .

كذلك نشر دي سلان قسماً كبيراً من تاريخ ابن خلدون هو المتعلق بتاريخ الدول البربرية في مجلدين كبيرين بعنوان «تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب» (الجزائر سنة ١٨٦٣)، ورجع في نشر هذا القسم إلى عدة نسخ مخطوطة، وتصرف فيه في بعض المواضع وأضاف إليه مقتطفات لمؤلفين آخرين . ونشر ترجمة فرنسية لهذا القسم في أربعة مجلدات ظهرت بالجزائر سنة (١٨٥٢ - ١٨٥٦) بعنوان Hist. des Berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique Septentrionale.

وترجمت المقدمة إلى التركية منذ أوائل القرن الثامن عشر، ترجمها إليها پيري زاده المتوفى سنة ١٧٤٩م (١١٦٢هـ) . وترجمت إلى الفرنسية أجزاء أخرى من التاريخ، منها قطعة عن تاريخ بني زيان Hist. de Benou Zayan، ترجمها دوزي، وقطعة عن بني

(١) راجع ترجمة دي سلان — ج ١ ص ١١٢

الأحمر ملوك غرناطة Hist... des P... ... Ahmar Ros...
... ترجمها جودفرى دومومبين ، وقد نشرتا فى المجلة
الأسيوية Journal Asiatique وقطعة مطولة أخرى عن ملوك
بنى عبد الواد ترجمها المستشرق ... وظهرت بالجزائر فى ثلاثة
مجلدات بعنوان H... des Beni Abd-el-Wad ... Ibn Khaldoun
وترجمت قطع فى الألمانية من ذلك ما ترجمه تورنبرج عن
تاريخ بنى عقيل : Die Geschichte der Oqailiden-Dynastie
وفصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطئ سورية أيام الصليبيين
قد ورنرج : Geschichte der Franken, welche die Kuster ...
... Grenzl... وفصول أخرى مختلفة من
المقدمة والتاريخ نقلها فون هامر وفون كريمر . وظهرت أخيرا
ترجمة ألمانية لأجزاء من مقدمة ابن خلدون عن الدولة نقلها الدكتور روزنتال
مقرونة بشروح وتعليقات تحت عنوان : Die G... ...
Khaldoun ueber ... S...

وترجمت قطع من المقدمة الى الايطالية إحداها عن الكتابة
العربية بقلم لانسى وأخرى عن تاريخ صقلية بقلم العلامة أمارى .
وترجم الجزء المتعلق بتاريخ البربر الى الانكليزية بقلم كاسلس ك
(K...) وشذور أخرى بقلم الأستاذ ماكدونلد . وترجمت أيضا قطع
مختلفة أخرى الى اللاتينية والروسية .

٣

ويوجد نسخ مخطوطة من المقدمة فى مكاتب برلين وليدن
وفلورنس والسكوريال والمتحف البريطانى وميلان وميونيخ وباريس

وفي . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة بدار الكتب المصرية وبها نسختان كاملتان تقريبا وبعض مجلدات مفردة ، ومكتبة الأزهر . وفي قسطنطينية في عثمانية وفي جامع [illegible] . وفي [illegible] مجمع العروبيين . وفي المتحف [illegible] وكسفورد [illegible] . وتوجد نسخة كاملة من التعريف أو رحلة بدار الكتب المصرية (مصطفى [illegible]) . وعمل بعض المكتبات نسخا فوتوغرافية . وهي بوحيدة في طهر[1] .

(١) [illegible]

# الملحق الثانى

## ثبت بالمصادر

— ١ —

### المصادر العربيـــة


كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون)، والمقدمة .

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (مخطوط) .

مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير (باريس سنة ١٨٥٨) .

مقدمة ابن خلدون، (مصر) سنة ١٢٧٤ هـ .

اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .

رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط) .

أنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر (مخطوط) .

المنهل الصافى لابن تغرى بردى (مخطوط) .

الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (مخطوط) .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .

السلوك فى دول الملوك للمقريزى (مخطوط) .

الخطط والآثار للمقريزى .

إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى (مخطوط) .

عجائب المقدور لابن عربشاه .

تاريخ مصر لابن إياس .

حسن المحاضرة للسيوطى .

الأحكام السلطانية للماوردى .

قوانين الوزارة للماوردى .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى (جريفزولد سنة ١٨٥٨) .

سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى وبهامشه التبر المسبوك للغزالى .

النهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن محمد .

عيون الأخبار لابن قتيبة .

رسائل إخوان الصفا .

آراء أهل المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى .

صبح الأعشى للقلقشندى .

مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان .

— ٢ —

## المصادر الغربية

هذه ونشير إلى أهم المراجع والبحوث النقدية التي ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأوربية .


Von Hammer-Pu[illegible] nach den ersten [illegible] (1812)

A. von Kremer: Ibn Ch[illegible] [illegible]schichte der islam[illegible]en Reiche; Wien 1879

[illegible]

[illegible]

[illegible]

Von Wesendonk: Ibn Khald[illegible] Historiker des 14. Jahrhund[illegible] Januar 1923) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] München 19[illegible]

* * *

[illegible] Ibn [illegible] Lockh[illegible] [illegible] Be.

[illegible]graphie Universelle t. XX. art. Ibn Khaldoun par S. de Sacy.

[illegible] Khaldoun [illegible] 1825.

[illegible] Ibn Khaldoun : dans Nouvelle B[illegible] Generale (1858).

De Slane : Les Prolegomenes d'Ibn Khaldoun.

[illegible] à l'etude d'Ibn Khaldoun. Revue du monde musulman XXVI. 1914.)

René Maunier : Les [illegible] economiques d'un philosophe [a]rabe (Revue d'histoire economique et social[e] 191[illegible])

R. Maunier : Les idees sociologiques d'un phi[lo]s[o]phe arabe au XIVeme siecle; (l'Egypte contemp[or]aine 1917, p. 31.)

[illegible] H[illegible] [illegible]

[illegible]

* * *

[illegible] A[c]count of the great h[i]s[to]rian [illegible] ph[ilos]opher Ibn Khaldoun. (Tran[sac]tions of the A. R. S. 18[illegible]

R. Flint : Historical p[hilosoph]y. Edinbourgh 18[illegible] 157 ff.

N. Schmidt : Ibn Kh[al]dun. H[ist]orian, Sociologis[t and] Philosopher. New York 1930.

* * *

[illegible] XIV [illegible] Riforma Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4. 1886).

ورجعنا أيضا الى الكتب الآتية :

N. Machiavelli : The Prince.

» » : Florentine History

Aristotles : Politics.

Dozy : Recherches sur l'Hist. et la Litterature d'Espagne au moyen âge.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis

# فهرس

## الكتاب الأول

## حياة ابن خلدون

### ١ — في المغرب والأندلس

٧٣٢—٧٨٤ هـ ، ١٣٣٢—١٣٨٢ م

صفحة


الفصل الأول : نشأة ابن خلدون ... ... ... ... ... ١١

(١) أسرته ... ... ... ... ... ١٢

(٢) نشأته الأولى ... ... ... ... ١٧

الفصل الثاني : ابن خلدون في بلاط فاس... ... ... ١٩

(١) في إفريقية وفي المغرب الأوسط ... ... ١٩

(٢) ابن خلدون والسلطان أبو عنان... ... ... ... ٢٣

(٣) بقية أخباره في فاس ... ... ... ... ... ... ٢٧

الفصل الثالث : رحلة الأندلس ... ... ... ٣٥

الفصل الرابع : ذروة المغامرة ... ... ... ٤٢

الفصل الخامس : العزلة والتأليف ... ... ... ... ٥٤

## ٢ - ابن خلدون في مصر

### ٧٨٤—٨٠٨ هـ ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م


| | صفحة |
|---|---|
| الفصل السادس: ولاية التدريس والقضاء | ٦٤ |
| (١) ابن خلدون في القاهرة | ٦٤ |
| (٢) ولاية القضاء الأولى | ٧٠ |
| الفصل السابع: في دمشق وفي معسكر تيمورلنك | ٧٩ |
| (١) ابن خلدون وتيمور | ٧٩ |
| (٢) ولاية القضاء الثانية | ٨٦ |
| الفصل الثامن: ابن خلدون والمجتمع المصري | ٩٠ |
| (١) خصومة بينه وبين الكتاب المصريين | ٩٠ |
| (٢) ابن خلدون والمقريزي | ٩٦ |
| (٣) خاتمة المطاف ووفاته | ١٠٠ |


## الكتاب الثاني

## تراث ابن خلدون الفكري والاجتماعي


| | |
|---|---|
| الفصل الأول: علم العمران كما يعرضه ابن خلدون | ١٠٧ |
| (١) علم العمران البشري | ١٠٧ |
| (٢) مقدمة ابن خلدون | ١١٠ |

صفحة

الفصل الثاني : علم السياسة والملك قبل ابن خلدون ... ١١٧

(١) ابن قتيبة وتجاربه .. .. .. ١١٩

(٢) رسائل إخوان الصفا . . ... .. .. . . ١٢٠

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ... .. ... ١٢٢

(٤) سراج الملوك للطرطوشي . ... ١٢٣

(٥) الفخري لابن الطقطقي . .. . .. . ١٢٥

الفصل الثالث : كتاب العبر والتعريف . ١٢٩

(١) كتاب العبر أو تاريخ ابن خلدون . ١٢٩

(٢) التعريف أو ترجمة ابن خلدون .. ١٣٧

(٣) مؤلفات أخرى .. ١٤٢

الفصل الرابع : ابن خلدون والنقد الحديث . ١٤٤

(١) الفيلسوف المؤرخ . . ١٤٧

(٢) الفيلسوف الاجتماعي ١٥٠

(٣) ابن خلدون الاقتصادي .. ١٥٥

(٤) الفيلسوف [illegible] . ... . .. . ١٥٧

الفصل الخامس : ابن خلدون ومكيافلي . ١٦١

(١) كتاب الأمير .. . . . . ١٦١

(٢) المفكران كلاهما مبتكر فلسفته . .. . ١٧٠

## ملاحق

صفحة

١ — بيان فهرسى عن كتاب العبر .. ... ... .. ١٧٥

(١) أصول النسخ المتداولة... .. .. . ١٧٥

(٢) التراجم مختلفة . .. ... ... ... ... ١٧٨

(٣) المخطوطات .. . ... .. . ١٨٠

٢ — المصادر العربية .. ... ... .. ... ١٨٢

٣ — المصادر العربية . . .. .. .. ١٨٤

AUC - LIBRARY

i15008654
b13178969

D
116.7
I 3
I 45

main
0000000021671
D 116.7 I3 I45 1933/c.1

8 OCT 1987